حليم نجار
استاذ في العلوم الزراعية من جامعة كاليفورنيا
والخبير الفني لوزارة الزراعة السورية

تراثنا الاجتماعي
وأثره في
الزراعة

بحث القضايا الاجتماعية الكبرى ودرس اثرها في القرية

١٩٤٩

2272
.6986
.389

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072578006

حليم نجار
استاذ في العلوم الزراعية من جامعة كاليفورنيا
والخبير الفني لوزارة الزراعة السورية

Halim Najjar

Tarathuna al-ijtimā'i
wa-atharuhu fi al-zirā'ah

تراثنا الاجتماعي
واثره في
الزراعة

بحث القضايا الاجتماعية الكبرى ودرس اثرها في القرية

١٩٤٩

فصول الكتاب

•

تمهيد	٧
المقدمة	١٠
المرابعة وملكية الارض	٢٨
التراث الديني	٦٤
العقلية الادبية	٨٨
الدولة والحكم	١٠٦
الحياة العائلية	١١٨
المدرسة	١٢٩
الخاتمة	١٥٠

(RECAP)

2272
.6986
.389

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

يأتي التطور البشري والتقدم المدني على أثر ازمات عالمية كبرى تستفيق البشرية منها حرة الفكر طليقة المعتقد ، فيعمل العقل البشري بوعيه الكامل حراً من القيود ، فيخطو درجة او درجات من سلّم التطور او الارتقاء .

والعالم العربي في حاضره يستيقظ بعد ماض مظلم طويل ، فيرى في العالم حوله حركات فكرية واجتماعية وسياسية ، ويمسح عن عينيه غشاوة الظلام ويبهره نور المدنية فيندفع نحوه دون روية وتبصر ، ليلتقط منه شعاعاً مبعثراً مما سهل امره وحلا شكله .

في هذه اللحظة من تاريخ الامة ، وفي هذا الوقت الذي به نشق طريقاً جديدة لنماشي العالم المتمدن ، يجب ان لا نسير سير المستيقظ المبغوت بل ان نتوقف برهة قصيرة

لنتفهم المشاكل التي تعترض سبيلنا ، ولندقق القضايا الاساسية التي شلت يميننا وحالت دون نهوضنا .

العرب اليوم هم في بدء نهضتهم الحديثة . القضايا تتعاقب والمشكلات تتراكم من جميع النواحي ، ولا يتاح لنا التبصر بالامور على هدأة ومهل ، فلا نكاد ننتهي من قضية او مشكلة حتى تجابهنا مشاكل اخرى هي ايضاً تتطلب حلاً سريعاً ، فنضطر مع حالة كهذه الى مداواة الحاضر بالحاضر فنبقى « ملحوقين » وليس لنا الوقت الكافي او العدة اللازمة للتفكير بالامور الاساسية . في ظرف كهذا يسهل على الامة ان تنزلق الى مستوى متدن من الاعمال السطحية الآنية ، وان تتغاضى عن المشاكل الحقيقية ، فلا تتعمق في درس قضاياها الكبرى ، ولا تحل مشاكلها الاساسية حلاً نهائياً ، فلا تُسد امامها نافذة الا وتنفتح بوجهها عدة نوافذ اخرى .

نحن اليوم في عصر البرامج الانشائية ، ويجب ان نضع هذه البرامج وضعاً لا ان نقتبسها اقتباساً . ووضع البرامج يتطلب درساً عميقاً للمشاكل الحقيقية في الامة ، درساً علمياً حراً من القيود والتقاليد ، يكشف الستار عن العوامل الداخلية التي تحول دون تقدم الامة ونهوضها . ثم على ضوء هذا

الدرس نضع البرامج الاصلاحية فنعالج القضايا من جذورها وفي جوهرها .

لقد حاولت في هذا الكتاب بحث المشاكل او القضايا الاساسية في النهضة الزراعية . وما كتبت رسالتي هذه للمزارعين الذين ابحث امرهم ومشاكلهم واشخص اسباب مرضهم ، لأن الامر لا يعود اليهم ، ولا للذين يعملون فعلاً في حقل الاصلاح الزراعي ـ لأن الاصلاح الذي ننشده هو أعمق من الاصلاح الفني وهو اساس له ـ بل اني قد كتبتها لاولئك الذين وقفوا حياتهم على خدمة الامة ، وانهمكوا بكل ما اعطوا من قوة في حل مشاكلها الراهنة . . . لاولئك المفكرين الذين يهتمون ويعملون على اصلاح الامة ؛ وقد اختطوا لنفسهم الطريق القصير ، اليهم أبعث هذه الرسالة علهم ينصرفون نحو القضايا الاجتماعية الكبرى ويدركون ان البناء محال دون الاهتمام بالأساس ، وانه من العبث محاولة اصلاح المظهر دون التدخل بالجوهر .

المقدمة

« يعمل في تكوين عقلية الشعوب عاملان قويان : البيئة الطبيعية ونعني بها ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبال وانهار وصحراء ونحو ذلك ، والبيئة الاجتماعية ونعني بها ما يحيط بالامة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين واسرة ونحو ذلك . »

احمد امين

•

اتجهت انظار المفكرين منذ فجر نهضتنا الحاضرة نحو الزراعة ، واتفق الجميع على ان الزراعة ، وهي اساس كياننا الاقتصادي والاجتماعي ، لم تنل اي قسط من التقدم والانتعاش . فقد بقيت كما كانت عليه في العصور الماضية ، عصور الجهل والظلام ، وبقي فلاحنا بعيداً كل البعد عن الاساليب الزراعية الحديثة التي هي وليدة العلم الصحيح

والاختبار الفني . ثم ان تقدم الزراعة في الغرب تقدماً محسوساً في الخمسين سنة الماضية قد اظهر الفرق الشاسع بين اساليبنا الزراعية القديمة والاساليب التي يتبعها الغربيون ؛ فبدت واضحةً للعيان ضرورة الاصلاح الزراعي واقتباس الاصول العلمية الحديثة .

ولما كانت الزراعة تشكل أهم ركن من اركان اقتصاديات البلاد ، وكان معظم سكان البلاد يقطنون القرى ويكسبون عيشهم من الزراعة وتربية المواشي ، فقد حدا هذا الامر حملة الاقلام والمفكرين الى التعرض لموضوع الاصلاح الزراعي ، فأظهروا باستمرار أهمية الموضوع وضرورة العناية بالزراعة والفلاح . وقد وصفوا بلغة بليغة وبكلمات مثيرة اساليبنا الزراعية « البالية » ، ومحراثنا الذي « يعود الى عهد سيدنا آدم » ، وفلاحنا الذي يتخبط تحت حمل ثقيل من الجهل والفقر والمرض ... وبالغوا في الحث على اقتباس الوسائل الاوروبية الحديثة . وقد استغربوا الاهمال الذي اصاب زراعتنا ، وكيف انها لم تتقدم كما تقدمت اعمالنا الاخرى ، فجاؤوا يصفون العلاج تلو الآخر ، وجاراهم في ذلك بعض الفنيين فسطروا المشاريع الزراعية التي تجب المباشرة

بتنفيذها انعاشاً للزراعة : دعامة البلاد الاولى .

لقد بدت لهم قضية الزراعة قضية بديهية ، ومشاكلها مشاكل واضحة . فهذه الحشرات والامراض تقضي على محاصيلنا ، بينما الفلاح الاجنبي يكافحها ويقضي عليها ؛ وهذه اشجار الفاكهة تزرع بشكل غير منتظم ولا تعامل معاملة صالحة ، بينما المزارع الاجنبي يزرع اشجاره في « خطوط مستقيمة جميلة المنظر » ، ويقلمها تقليماً جيداً ، ويسمدها ويرويها حسب الاصول الفنية ، فينال محصولا فاخراً ؛ وهذه حيواناتنا الصغيرة الحجم القليلة الانتاج لا تقاس بالحيوانات المنتخبة الاصيلة التي يربيها الفلاح الاجنبي ويحصل منها على اضعاف ما نحصل عليه نحن من حيواناتنا ، فيحيا الفلاح الاجنبي في بحبوحة من العيش وقد حاز على قسط وافر من العلم والثقافة ، ويتنعم في بيته النظيف المريح وفي محيطه الاجتماعي الراقي بحياة الرفاهية والعزة والاحترام ؛ بينما فلاحنا المسكين يعمل ويشقى فلا ينال من عمله الا القوت الضروري او يكاد لا ينال ذلك ... وليس له من رفاهية العيش ومن التنعم بخيرات هذه المدنية غير الظل والصدى ...

لماذا اذاً لا نستبدل المحراث القديم بالمحراث الحديث ،

فننتقل بالفلاح من عصر آدم الى عصر النور والعلم ؟ لماذا لا نكافح الحشرات والامراض فيجني الفلاح ثمرة جهوده التي كانت تذهب طعاماً لهذه الهوام ، فيثري ويبعد عنه شبح الفقر والعوز ؟ لماذا لا نقدم له حيوانات منتخبة وانواع فاكهة « افرنجية » ؟ لماذا لا نقوم بمشاريع الري ونستثمر الاراضي الموات ؟ لماذا لا ندخل الآلات الزراعية فننعش الفلاح وترتقي الزراعة فنبني لامتنا ركناً اقتصادياً قوياً ، ونوجد لها بيئة اجتماعية راقية ؟ !

اسئلة بديهية ترددها الخاصة والعامة ... واجوبة واضحة تقدمها ايضاً الخاصة والعامة منذ اعوام عديدة ... ومع ذلك فقد بقيت الزراعة على ما كانت عليه ، ولم يزل الفلاح يتخبط في جهله وفقره ، ولم تزل البلاد تتحمل نتائج ذلك الجهل والفقر !!! ولماذا ؟... لاننا أخطأنا تعيين الهدف عندما أخطأنا تشخيص المرض .

يحكى أن احد زعماء البحارة في الجيل الماضي وقف يؤبن زميلاً عزيزاً له انتقل الى رحمة ربه ، فنطق بكلمات محدودة وجيزة تأبينا بليغاً قال :

« لو كانت جبال ... هدمناها !!...

« لو كانت بحور ... نشفناها !!

« لكن هذا الموت ... الموت ... ؟!... دين الموت »

ونحن بدورنا نقول : لو كان المحراث وحده هو سبب تأخر الزراعة في بلادنا لحطمناه ... ولو كانت الحشرات لأبدناها ... ولو كانت الوسائل الحديثة الافرنجية تنعش الزراعة لأدخلناها ... لكن القضية هي اعمق من المحراث وابعد من الاساليب .

كل من اشتغل في حقل الاصلاح الزراعي يرى بعد اختبار قصير ان الزراعة هي مجموعة امور مترابط بعضها ببعض ، هي نظام معقد له نواح عديدة متشابكة ، لا يمكن اصلاحها الا اذا عالجناها من جميع نواحيها . هي كالطاولة لا يمكن رفعها عن الارض الا برفع قوائمها الاربع . هي سلسلة مركبة من حلقات عديدة ، وقوة هذه السلسلة او متانتها تقاس بمتانة أضعف حلقة فيها ... فمكافحة حشرة أو استعمال محراث جديد أو اتباع اسلوب حديث لا ينتهي بنا الى اصلاح الزراعة ، وما أعمال كهذه سوى رقع في ثوب بال . هي ذر في العيون تلهينا بالقشور عن اللباب فنعنى بالمظهر ونهمل الجوهر ... هي عمل في الشكل دون الاساس .

في معالجة القضايا الاجتماعية أو الاقتصادية الكبرى يجدر بنا ان لا نختصر الطريق ونسير « على القادومية » ، بل علينا ان ننهج الطريق الاساسية ـ مهما كانت طويلة المدى ـ ونلج القضية من أبوابها لا من نوافذها ، فنبني لها ركناً راسخاً وهيكلاً متماسك الأجزاء .

عفيفي المشكلة

يقول حافظ عفيفي باشا في كتابه « على هامش السياسة » ان « اولى خطوات الاصلاح هي الاقتناع بضرورته ، ثم التفكير في اشكاله ونواحيه » . لقد اقتنعنا بضرورة الاصلاح الزراعي ، فلنفكر في « اشكاله ونواحيه » . و « التفكير في اشكاله ونواحيه » يتطلب أولا ادراك حقيقة القضية التي نود اصلاحها ، فمتى أدرك الطبيب حقيقة المرض سهل عليه العلاج .

وهذه القضية الزراعية التي نحاول حلها تتطلب تفكيراً عميقاً لمعرفة الاسباب الحقيقية التي حالت دون تقدمها . فمعرفة الاسباب الحقيقية لهذه المشكلة تفتح أمامنا السبيل لوضع خطط الاصلاح الفعالة ، والسير على الطريق التي تؤدي عاجلاً أو

آجلاً الى حلها . أما مداواة المرض حيث يوجد الالم فلن يجدينا نفعاً . واصلاح الزراعة بواسطة « الترقيع » وبمداواة المشاكل الفردية السطحية دون التعرض لاسبابها الحقيقية عمل لا يأتي بفائدة محسوسة ثابتة ... ولا يمكن أن يكون أساساً لمشروع انشائي دائم .

فما هي عوامل التأخر في الزراعة ؟ وما هو سببها ؟ ولأية ناحية يجب أن نسدد سهام الاصلاح ؟ هل الادوات القديمة والاساليب العقيمة هي السبب الاساسي لتأخر الزراعة ؟ أم ان هذه هي « نتيجة » لا « سبب » ؟

تقوم الزراعة على عاملين اساسيين هما سبب نجاحها أو تأخرها :

١ — العامل الفني

وهو الناحية العلمية في الزراعة وما تنطوي عليه من اعمال واساليب . ويدخل تحت هذا العامل الارض والادوات والنباتات والحيوانات التي يستخدمها الانسان وطرق العناية بها . ولن اتعرض لبحث هذا العامل الذي تعرض له الكتاب كأنه العامل الرئيسي ، لانه في نظري امر ثانوي ولانه يكاد

يكون « نتيجة » لا « سبباً » للتأخر الزراعي ولجهل المزارعين . ومهما يكن الامر ، فهو متوقف على ما يبديه العامل الثاني من استعداد للاصلاح . وهذا العامل الثاني هو :

٢ — العامل الشخصي

وهو العامل البشري الذي بواسطته ترتقي الزراعة وبه تتأخر . هو ذلك الشخص الذي يسير وراء المحراث — لا المحراث نفسه — فهو الذي يرتفع بالفن الزراعي الى أعلى درجاته أو ينحط به الى أدنى دركاته . هو الفلاح الذي بسبب انحطاطه انحطت الزراعة وتداعت اركانها ، والذي لأجله ، لاجل رفاهيته ورفع مستوى معيشته نسعى وراء الاصلاح الزراعي وننشده . هذا هو العامل الاساسي الفرد ... ان شئت ... الذي ترتكز عليه الزراعة فتعلو معه أو تنوء به . وقد جاء في تقرير اللجنة الملكية الزراعية في الهند « ان أهم عامل من العوامل التي تؤول الى تقدم الزراعة هو الفلاح نفسه . » (١)

العامل الشخصي ، هو عامل اساسي في كل عمل من

(1) Royal commission on agriculure in India P, 19

اعمال البشر: علم ، اجتماع ، سياسة ، صناعة ، تجارة الخ ... فلماذا لا يكون اساسياً في العمل الزراعي وهو العمل الذي يتطلب انخراط شخصية الفلاح بارضه واشجاره واعماله ؟

لقد عالجت القضايا الزراعية زمناً طويلاً ودرست مشاكلها العديدة فوجدت عاملاً واحداً يتخلل جميع المشاكل ، كأنه المخرج المشترك لمعظم القضايا الزراعية : هو ذلك العامل الشخصي : المزارع . فان كان من تأخر في الزراعة فهو سببه ، وان كان من تقدم فهو ايضاً سببه أو وسيلته . اليه أعزو التأخر الزراعي في البلاد - وبواسطته ، لا بغيرها ، انشد الاصلاح الزراعي . وكل اصلاح لا يستهدف الفلاح ، ولا يعطي العامل الشخصي في الزراعة حقه ، هو بناء من دون اساس ، مصيره لا محالة الى الانهيار .

فما هي صفات هذا العامل الشخصي ؟ وهل هو عماد ترتكز عليه زراعتنا أم عبء تنوء تحته ؟ ما هي الصفات البارزة فيه التي جعلته وبالا على الزراعة لا خيراً لها ؟ وما هي العوامل الحقيقية التي كونت هذه الصفات ؟ هل يمكن اصلاحها وهل باستطاعة فلاحنا ان ينهض بزراعتنا اذا نحن نهضنا به ؟ هل له المؤهلات لذلك ؟

ما دام تقدم الزراعة يتطلب تطبيق الاصول الفنية الحديثة ، وهذا بدوره يتطلب ان يكون المزارع نبيهاً واعياً مدركا ، يقبل الافكار الحديثة ويسعى الى اختبارها وتطبيقها ، لا أن يكون فلاحاً جاهلاً يقف سداً منيعاً في وجه التقدم والفن الحديث ، فدرس حالة فلاحنا واصلاح شأنه وتقويم ما اعوج فيه ، يأتي في مقدمة مشاريع الاصلاح الزراعي .

يعتقد الجميع ان فلاحنا لا يستطيع ان ينهض بزراعتنا ما دام ينوء تحت نيري الجهل والفقر . فلنعلمه القراءة والكتابة فنقضي على جهله ، ولندخل الاساليب الزراعية الحديثة فنزيد دخله ونزيل عنه الفقر فيتنعم بالحياة وعندئذ يتحمل مسؤولية التقدم الزراعي .

لقد مر على الفلاح اوقات كان فيها متنعماً في بحبوحة من العيش . فماذا كانت نتيجة هذا اليسر وهل أدى الى رفع مستوى عيشه وثقافته ؟ كلا . بل ان الفلاح قد بذّر امواله في لبس الحرير وتعدد الزوجات . حتى ان الجرائم والشقاوة تزداد بين الفلاحين في « سنين الخير » . ثم ان العلم قد انتشر في بعض القرى فتعلم المزارعون القراءة والكتابة والحساب وعلموا ان سوريا « يحدها شمالا » كذا وكذا ،

وان الفاعل يرفع بالضمة ، ولكن ذلك ما غير ولن يغير شيئاً في ثقافة المجتمع الريفي ، ولن يسير بهم على طريق التقدم ، لان أسباب التأخر الحقيقية هي أعمق وأبعد من ان تصلح بتدريس القراءة والحساب او باضافة بضع دريهمات الى دخل الفلاح . هنا ايضاً قد يكون الجهل والفقر « نتيجة » لا « سبباً » لتأخر زراعتنا ومزارعينا . علينا اذاً ان نبحث عن العوامل الحقيقية التي أدت الى هذا التأخر وان نوجه خططنا نحو هذه العوامل الاساسية لا نحو المظاهر الناتجة عنها .

فما هي العوامل الاساسية التي كونت شخصية المزارع وجعلتها غير مؤاتية للتقدم ؟ ان شخصية الانسان هي نتتجة عاملين :

١ ـ الوراثة الطبيعية

٢ ـ التراث الاجتماعي

الوراثة الطبيعية هي مجموعة الصفات التي يرثها الانسان عن والديه . هذه الوراثة تحدد شكله وقوته وذكاءه ، وهي صفات اساسية في الفرد وعامل رئيسي في مستقبله . وهل يستوي الذكي والابله ؟ لكن فيما يختص بمجموع افراد الامة ، اي بطبقة المزارعين ، لا يصح القول مطلقاً بان

تأخرهم ناتج عن قلة ذكائهم او عن نقص في وراثتهم ، بل اننا احياناً نرى ما يثبت انهم بفطرتهم اشد ذكاء ودهاء من سكان المدن المتعلمين . ثم انه لا يوجد دليل علمي على ان الامم الراقيـة ، امم المدنية الحاضرة ، هي ارفع اصلاً او اشد ذكاء ، او اصلح وراثة من الامم « المتأخرة » . فان كانت الامم الراقية اصلح وراثة ، فاين كانت عواملها الوراثية الطيبة يوم كانت تتخبط في ظلام القرون الوسطى وما قبلها ؛ واين ذهبت وراثة الامم التي حملت مشعل المدنية مدة قرون عديدة كالفراعنة والاغريق والفرس والعرب !؟

ان وراثة هذه الشعوب قـد اهلتهم لقيادة المدنية والسير بها ـ والوراثة الجيدة لا تضمحل بسرعة ـ وهي لا تزال تؤهلهم في كل وقت للسير مع الشعوب المتمـدنة في مضمار الحضارة والعلم . فميراثنا الطبيعي ما كان ولن يكون سبباً لتأخر الامة العربية في الحقل الزراعي ، بل هو املنا الاوحد في العودة الى المستوى المدني الذي نستحقه . وان تفوق افراد هذه الامة في المهجر هو خير دليل على طيب اصلهم وفرط ذكائهم .

اذاً علينا ان نبحث عن اسباب تأخرنا في العامل الثاني

الذي يكون « شخصية » الامة ، ألا وهو :

التراث الاجتماعي

« يعمل في تكوين عقلية الشعوب عاملان قويان : البيئة الطبيعية ونعني بها ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبال وانهار وصحراء ونحو ذلك ، والبيئة الاجتماعية ونعني بها ما يحيط بالامة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين واسرة ونحو ذلك » (١) . وكما ان البيئة البيتية تؤثر في مستقبل الشخص وميوله وطباعه واعماله ونشاطه وآدابه ، فكذلك البيئة الاجتماعية تحدد عمل الامة ونشاطها وثقافتها وتقدمها . فالبيئة الاجتماعية تطبع الامة بطابع خاص وتلازمها ببعض الصفات حتى انها تصبح جزءاً متمماً للصفات الوراثية الطبيعية فيها .

تمتاز الامم بعضها عن بعض بميزات خاصة تؤهلها للسيطرة والانتاج او تعرضها للفناء والاندثار . فهذه امة امتازت بتفكيرها العملي ، وتلك فاقت غيرها بانتاجها الفكري . هذا شعب امتاز بثباته ورباطة جأشه ، وذاك شعب تنقصه الرصانة

---

(١) احمد امين ـ فجر الاسلام صفحة ٥٢٠ .

والاتزان . هذا شعب يعمل فيثبت في الملمات ، وذاك شعب يخمل وينوء تحتها . هـذا شعب اتكالي يستسلم لما وراء الطبيعة ، وذلك شعب يعتمد على نفسه للوصول الى غايته . هذه امة تسيطر عليها الخرافات والاوهام ، وتلك امة تسير في وضح التفكير العلمي الصحيح . هذه الميزات التي يتصف بها افراد الامة فيسمون امتهم بسمة خاصة ، هي ميزات غير وراثية ، بل انها نتيجة « البيئة الاجتماعية ونعني بها ما يحيط بالامة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين واسرة ونحو ذلك » . هذه النظم الاجتماعية هي التي تجعل من الشعوب امماً راقية ومن الدول قوى ثابتة . هذه هي النظم التي ان حسنت اهلّت الامم للبقاء وان فسدت جعلتها مغلوبـة على امرها . هذه النظم هي مركز القوة او مقر الضعف في الامة .

هنا ، في نظمنا الاجتماعية اذاً ، نجد الاسباب الحقيقية للتأخر الزراعي والثقافي والصحي . بل هنا نجد السبب الرئيسي لتقهقر الامة العربية التي حملت مشعل العلم والمدنية برهة من الزمن ، ونجد ايضاً سبب ازدهار ورقي بعض الدول الغربية كانكلترا (١)، وعلى الاخص الدانمارك التي نهضت من كبوتها

(١) راجع كتاب « سر تقدم الانكليز الساكسونيين » .

بعد حروب خاسرة ، ولم تغلب على امرها في داخليتها لان نظمها الاجتماعية كانت عضداً لها في النهوض لاعباً عليها (١) .

• • •

ذكرنا ان اهم عامل يؤول الى تقدم الزراعة هو الفلاح نفسه ولا نعني الفلاح بعمله ، بل الفلاح بعظمه ودمه ، او بالاحرى بعقليته ونفسيته . ونفسية الفلاح هي وليدة بيئته او ما يحيط به من اشياء طبيعية حسية ، وامور فكرية روحية (٢) .

لقد تضافرت العوامل المختلفة في محيطنا فجعلت للفلاح شخصية محافظة لا تقبل التقدم والنشوء ، وعقلية رجعية تعمل في ظل من الأوهام والخرافات . فان جاءت اعمال الفلاح خاطئة من الوجهة الفنية فعلاجها الصحيح قد لا يكون بتطبيق اصول الفن . وكيف نطبق اصول الفن اذا كان الفلاح لا يقبل هذه الاصول ؟ ثم اذا كان الفلاح محافظاً في عاداته ، رجعياً في عقليته ، قنوعاً عديم الطموح ، فلا يكفي ان نوجه اليه النقد او ان نسدي اليه النصح بان

---

(١) Howe. Denmark, The cooperative Way : chap. XVII

(٢) R.P. Ayrout, H. Mœurs & coutumes du Fellah. ch IX

الا يكون محافظاً او رجعياً او قنوعاً ، بل علينا ، في مواجهة قضية كبرى كقضية اصلاح عقلية الفلاح ، ان نبحث الاسباب التي ادت الى جعل الفلاح محافظاً رجعياً قنوعاً ، وان نوجه جهودنا للقضاء على هذه الاسباب . بهذه الطريقة نستأصل الداء من اساسه ونأمل الخلاص من العقلية المضادة للتقدم ، فيأتي الاصلاح الزراعي الفني اصلاحاً كاملا شاملا .

استعرض الاستاذ حماده (١) مشاكلنا الزراعية الاساسية فذكر احد عشرة مشكلة عامة كانت سبعاً منها مشاكل اجتماعية . وبعد اشتغالي عدة سنوات في حقل الاصلاح الزراعي وبعد احتكاكي المتواصل وتعرفي بالفلاح وعقليته وتفكيره ، وبعلاقة الزراعة بعقلية الشعب وبالامور الاجتماعية العامة بت اعتقد ان النهضة الزراعية تتطلب اعمال مصلحين اجتماعيين يحضّرون الفلاح لقبول الاصلاح ويمهدون السبيل للنهوض الزراعي والانتعاش الريفي بقدر ما تحتاج الى دراسات فنية ومشاريع هندسية .

واني فيما يلي من هذا الكتاب استعرض بعض القضايا التي حالت دون القيام بنهضة زراعية واسعة النطاق . قد

---

(١) المشاكل الزراعية ـ جريدة النهار (بيروت) في ١٦ كانون الاول ١٩٣٦

اتعدى حدود اختصاصي الفني في هذا البحث وأدخل في حقل الاجتماعيات وعذري في ذلك هو ان اعمال الانسان لا تقسم الى اقسام مستقلة كغرف في فندق بل هي فصول من كتاب ، وكل فصل مرتبط بما سبقه وما يليه . والزراعة ليست صناعة للانتاج بقدر ما هي نظام معيشة . كما وان الغاية من اصلاح الزراعة ليست زيادة ثروة الامة بل اصلاح نظام العيش لأولئك الذين يعملون لكسب عيشهم من الارض . والقضايا القومية الكبرى لا تأتي مستقلة منفردة بل انما هي تكون متشابكة مترابطة متفاعلة ، فالبحث في اي قضية منها يجب ان يكون عاماً شاملاً لجميع نواحيها ومتفرعاتها لا ضيقاً منحصراً في فرع منها .

وقبل ان اختم هذه المقدمة يتوجب علي ان أذكر القارىء الكريم بان التحليل العلمي يتطلب تحكيم العقل لا العاطفة وان المرء الذي يسعى وراء الحقيقة يجب ان يطلبها حقيقة مجردة لا حقيقة تلابسها الرغبات والميول الشخصية . وفي ابحاث قضايانا الاجتماعية لا بد من التعرض لأمور هي في جوهرها عزيزة علينا وبعضها تكاد تكون مقدسة ومنزهة عن الانتقاد . انما الواجب يقضي ان نضع عواطفنا القومية

جانباً وان نتقبل الحقيقة بصدر رحب مهما كانت الحقيقة مؤلمة ، وان نذعن للواقع لا ان نتصدى للدفاع عنه ستراً لنقص او حرصاً على كرامة .

المرابعة وملكيّة الأرض

« ان سحر ملكية الارض يقلب الصخر تبراً . اعط الرجل ملكية ثابتة في صخر فيحوله الى جنة ؛ واعطه جنة ليستثمرها فيجعل منهـا ارضاً قاحلة » .

« هبي »

●

الثروة الزراعية هي نتيجـة عاملين رئيسيين : الارض واليد العاملة . وهذان العاملان متفاعلان ، الواحد منهما يؤثر تأثيراً جسيما بالآخر .

فالارض تنتج الخير العميم اذا قدر لها ان تستغل بواسطة يد عاملة حكيمة تحسن استعمالهـا وتجيد المحافظة على قوة الانتاج فيها ، بينما للارض ولطريقة استغلالها تأثير ظاهر في نفسية المزارع الذي يستغلها .

ان نوع ملكية الارض له اعمق أثر في طريقة الاستغلال وفي نفسية المزارع . فالشخص الذي يستغل ارضاً لا يملكها لا يقدم لها الخدمة التي تبقي بهـا خصبها ونشاطها للاجيال المقبلة . انمـا هو يستثمرها استثماراً . « ان سحر ملكية الارض يقلب الصخر تبراً . اعط الرجل ملكية ثابتة في صخر فيحوله الى جنة ؛ واعطه جنـة ليستثمرها فيجعل منها ارضاً قاحلة » (١) ومن الناحية الاخرى فان تأثير ملكية الارض في عقلية المزارع لاتقل عجباً عن تأثيرهـا في انتاج الارض . فالرجل الذي يملك ارضاً يشعر بطمأنينة مادية توقظ فيه الطموح والنشاط وهو سلطان بيته . بينما الرجل الذي يعمل « مرابعاً » يبقى تحت رحمـة الآخرين فيفقد النشاط والطموح والصفات الاجتماعية العالية فينحط مستواه الفـكري والاجتماعي . فهو ، حـتى في ابهى مظـاهره ، عبد في بيته .

فلملكية الارض ، اذن ، اتصال وثيق بناحيتين رئيسيتين هما دعامة كيان الامة : المجتمع الريفي والثروة الزراعية .

---

(١) Gee - Soc. Econ. in Agr. p. 160

ومستوى المجتمع الريفي يؤثر بالثروة الزراعيـة بقدر ما تؤثر الثروة الزراعية بالمجتمع الريفي .

الملكيات الزراعيـة

يرجع نظام ملكية الاراضي الزراعية الى العصور الوسطى وقد كان شائعاً فيها النظام الاقطاعي . كانت في ذلك العهد وحتى مدى قريب ، جميـع الاراضي في اوروبا مقسمة الى اقطاعيات كبيرة يملـكها امير او شريف وكان يعتبر المزارع في ذلك الوقت جزء من الارض التي يزرعهـا . فهو في عرف ذلك العهد اقرب الى العبد منه الى المواطن . وقـد تسرب هـذا النظام الى البلاد العربية حيث كانت الارض ملـكاً للقبيلة التي تأتمر ، اداريا ، بامر اميرهـا او شيخها . وقد حصل كثير من التبديل الفعلي في نظام ملـكية الارض في البلاد العربية عندما بدأت تضعف قوة السلطان . في ذلك الحين انتشرت طريقة الاقطاعية حيث كان « يقطع » امير او شيخ قبيلة قطعة شاسعة من الارض الاميرية كمنحة من السلطان مقابل خدمة او مساعدة قام بها [1] . وكان

(1) Barghouty, « Traces of theFeudal System in Palestine

يعطى الامير او الشيخ حرية التصرف بالارض وما عليها من سكان فيجبي ما شاء من الضرائب ويقدم جزءاً منها لخزينة الدولة وكان يجند من شاء من السكان . وقد نشأت بعض الملكيات الكبيرة ايضاً بمجرد وضع اليد والسيطرة ومقابل دفع الضرائب العائدة عليها لخزينة الدولة ، وكان ذلك في زمن لم تكن فيه الملكية ثابتة ولم يعرها المزارعون الفعليون اي اعتبار .

لقد اوجد لنا هذا الوضع في بدء نهضتنا الزراعية قضية اساسية هى من بقايا الماضي ولها أثر في تطورات الحاضر والمستقبل . وهذه القضية هي قضية الملكيات الكبيرة ونظام المزارعة (المرابعة) . فان ملكية الارض هي لغير الاشخاص الذين يعملون فيها ، ونظام المرابعة في الممتلكات الكبيرة هو النظام السائد في معظم البلدان العربية . لقد اصدرت دائرة المساحة في سوريا بياناً عن توزيع ملكية الاراضي التي تم مسحها لغاية نهاية ١٩٤٤ ومنه نستخلص الجدول التالي [٢] :

---

(2) Statistiques Diverses, Service du Cadastre 1944, P. 11

مساحة الملكيات الزراعية في الاراضي السورية التي تم مسحها لغاية ١٩٤٤ (١)

ملكيات صغيرة			ملكيات متوسطة			ملكيات كبيرة		
دون الهكتار	١ – ٥ هكتار	٥ – ١٠ هكتار	١٠–٢٥ هكتار	٢٥–٥٠ هكتار	٥٠ – ١٠٠ هكتار	١٠٠–٥٠٠ هكتار	٥٠٠–١٠٠٠ هكتار	ما فوق ١٠٠٠ هكتار
١٤٨٥٢ هكتار	٧٠٢٠١ هكتار	١١٣٨١٣ هكتار	٢٥٥٠٣٧ هكتار	١٦٧٥٦٦ هكتار	١٥٣٤٥٣ هكتار	٣٦٤١٥٨ هكتار	١٤٥٣٤٢ هكتار	٢٤٨٦١٣ هكتار
١ ٪	٥ ٪	٧ ٪	١٧ ٪	١١ ٪	١٠ ٪	٢٤ ٪	٩ ٪	١٦ ٪
١٩٨٨٦٦ هكتار أي : ١٣ ٪			٥٧٦٠٥٦ هكتار ٣٨ ٪			٧٥٨١١٣ هكتار ٤٩ ٪		

(١) وبالمقابلة مع دولة اوربية كفرنسا مثلا نجد الفرق شاسعاً فملكية الارض هناك توزع كما يلي :

مساحة الملكية :	دون ١٠ هكتار	١٠ – ٤٠ هكتار	٤٠ هكتار وما فوق
النسبة المئوية (١) :	٣٥ ٪	٢٥ ، ٨ ٪	٣٨ ٪

(1) Question Agricole, p. 21

اي ان الممتلكات الكبيرة تشمل نصف مجموع الارض الممسوحة بينما الممتلكات الصغيرة لا تزيد عن ١٣ ٪ . هذا ، واذا اخذنا بعين الاعتبار ان الاراضي الزراعية التي تم مسحها هي في المناطق المأهولة والتي نسبياً تكثر بها الملكيات الصغيرة نرى كيف ان الملكية الصغيرة لا تمثل الا جزءاً يسيراً من مجموع الاراضي الزراعية السورية .

اما في مصر فقد دلت احصاآت ١٩٣٧ [1] على ان ٧٠ ٪ من الملاكين (دون اعتبار عدد المزارعين او الفلاحين الذين لا يملكون ارضاً) يملكون ارضاً مساحتها دون الفدان الواحد (٠٫٤ هكتار) وان ١٫٤ ٪ من الملاكين في القطر المصري يملكون نصف الاطيان ، بينما ٩٨٫٦ ٪ منهم يملكون النصف الآخر !!

هذا في سوريا ومصر . والحالة لا تختلف عما هي عليه في بلدان اخرى كالعراق وشرق الاردن وفلسطين . اما في لبنان ، وان كان القسم البارز منه (محافظة جبل لبنان) يعطي صورة مختلفة حيث الملكية الصغيرة هي السائدة ، فان القسم الاكبر من أرض لبنان الزراعية يقع في المناطق التي

(١) مجلة التعاون ، مارس ١٩٣٨ صفحة ٢١٩

تسود بها الملكية الكبيرة !

هذا عن الملكية بالنسبة لاتساعها . وهناك ظاهرة اخرى في ملكية الارض الزراعية لا تقل أثراً في استغلال الارض من حجم الملكية ونوع المزارعة ، وهي تقسيم الملكيات . فعندما يكون سكان القرية هم مالكوها نجد ان نظام الوراثة قد قسم الارض مع الزمن الى قطع صغيرة متعددة يملك الفرد منها عدداً كبيراً في مختلف الجهات ويقضي معظم وقته متنقلاً بين قطعة واخرى وهو مضطر بطبيعة الحال ان يجاري جيرانه في اعمالهم الزراعية فلا يتمكن من الاقدام على اصلاح اعماله او القيام بزراعة جديدة . وكثيراً ما نشاهد قطعاً من الارض يزيد طولها عن الكيلومتر وهي بعرض لا يزيد عن المتر او المترين . لقد اجرت دائرة المساحة في سوريا توحيد وتجميل هذه الملكيات في ٦٧ قرية مجموع مساحتها ١٤٩٥٣٨ هكتاراً . كان في هذه القرى ٤٢٠٤٥٠ قطعة قبل التوحيد فأصبحت بعد التوحيد ١٥١٤٥ قطعة[1] .

وهناك نوع آخر من الملكية وهو المشاع ، حيث يملك افراد القرية حصصاً او اسهماً في اراضي القرية دون ان

(1) Statistiques Diverses, service du Cadastre, 1944 p. 9.

يخصص احد منهم بقطعة معينة من الارض . فترى المزارع ينتقل من بقعة الى اخرى فلا يستقر على ارض معينة ولا يقوم بأي اصلاح دائم ولا يقدم على تشجير او تسميد ـ فهو بهذا العمل ليس بمزارع بل انما هو مستعمر يستعبد الارض سنة واحدة فينهكها ثم ينتقل ليفسد غيرها وينتهي به الأمر الى افقار نفسه وارضه .

اذاً ملكية الارض تكون : اما ملكيات كبيرة ، او ملكيات قطع صغيرة او مشاع ، وكلنا يدرك اضرار تعدد القطع الصغيرة واضرار المشاع فلا لزوم لبحث الموضوع من هذه الناحية . اما عن الملكيات الواسعة ، فما ضرنا ان تكون ملكياتنا الزراعية كبيرة ؟ قد يكون في ذلك حسنة كبيرة خصوصاً وان الملكيات الكبيرة هي التي تسمح بجعل الزراعة آلية ، أي زراعة تعتمد على استعمال المكنات الزراعية الكبيرة . والزراعة الآلية هي سبيلنا الوحيد لاستثمار تلك الاراضي الشاسعة التي يقل بها عدد السكان . وهي الواسطة التي تمكننا من انتاج المحاصيل بأثمان تساعدنا على خوض المزاحمة في الاسواق العالمية .

هذا هو المظهر السطحي او النظري لهذه القضية . اما

حقيقة الواقع فهي ان نظام استغلال الملكيات الكبيرة قد تحور فابتعد عن الطريق المثلى وخسر الحسنات التي كان يجب ان يتميز بها . فالارض وان كانت كبيرة ، فانها بسبب اهمال مالكيها وبعدهم عنها ، تقسم الى اقسام صغيرة وتوزع على مزارعين او مرابعين يستثمرونها كملكية صغيرة دون ان يكون لها حسنات الملكية الصغيرة . ونظام المرابعة هذا قد اصبح جزءاً أساسياً من النظام الزراعي العام في البلاد . فما هو تأثير هذا النظام في النهضة الزراعية الريفية ؟

١ ـ تأثير المرابعة من حيث الانتاج الزراعي

لكي تستغل الارض استغلالا حكيما يجب ان تتوفر الامور التالية :

١ . شعور المزارع بحالة الثبات او الدوام التي تجعله « يعمل لدنياه كأنه يعيش ابداً »

٢ . اتباع نظام زراعي يحفظ للارض خصبها ونشاطها

٣ . الرأسمال الكافي لشراء الادوات والمواد الضرورية

والفلاح المرابع لا يملك من هذه الامور شيئاً ، فهو فقير الحال لا يقوى على شراء الادوات الضرورية ولا على توظيف

الرأسمال اللازم للاستثمار المتقن . كما انه يشعر بالقلق وعدم الاطمئنان لمستقبله في تلك الارض ما دام عرضة للانتقال او الطرد . لذلك لا تراه يهتم باتباع خطة زراعية منظمة تؤول الى المحافظة على خصب التربة أو على مقدرتها للانتاج . فهو بهذا المعنى عامل في منجم يجدّ في استخراج مكنونات الارض من فحم أو حديد او خلافه ، اكثر منه مزارعاً يعمل في اصلاح حالة التربة وابقائها صالحة للانتاج . ان عدم امتلاكه للارض التي يستغلها يجعله ، كما هو معروف عنه ، « يأكل الخضراء ويقطع اليابسة » . ومن أهم قواعد الزراعة الحديثة هو ان يستغل المزارع الارض وان يورثها الى اولاده خصبة صالحة للانتاج كما ورثها عن آبائه . وهذا لا يتم في حالة المرابعة .

الارض الزراعية تحتاج لدورة زراعية منظمة ، ولتسميد ، وانشاآت خاصة من جلول لمنع انجراف التربة ، أو أقنية للري او التجفيف ، ولغرس اشجار لصد الرياح الى آخره . ان جميع هذه الاعمال تتطلب الجهد والرأسمال ولا تعطي الفائدة المطلوبة منها الا على أمد طويل . لذلك نرى المرابعين في جميع اقطار العالم يتفقون ، على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم

وعاداتهم ، على ان لا يقدموا للارض هذه الخدمات الضرورية لها . وما ذلك الا لأنهم لا يملكون الارض ولا يستفيدون الاستفادة الكاملة من الجهد او المال الذي يصرفونه في هذه الاصلاحات .

الفلاح المرابع ينظر الى الارض نظرة المستثمر الوقتي . فما دام التحسين في الارض يؤول الى من يعقبه من المرابعين ولا يستفيد هو منه ، فليس من المنتظر ان يعمل الانسان لمنفعة غيره . فالفساد واقع في نظام المرابعة نفسه لا في المرابع .

أما صاحب الملك فهو يعيش بعيداً عن قريته ويسكن المدينة فلا يوظف ماله في اصلاح ارضه لانه هو ايضاً يعتقد ان الفلاح يقاسمه فائدة هذه الاصلاحات . ومن ناحية اخرى فان سكنه في المدينة يفرض عليه زيادة بالمصروف فلا يتوفر لديه المال الكافي لتوظيفه في اصلاحات القرية . كما ان كونه مالكا لأرض شاسعة تدر عليه المال الكافي لسد حاجاته في المستوى الاجتماعي الذي قبله لنفسه ، لا يجعله يجد في نفسه الحاجة الماسة أو الرغبة الكافية لزيادة دخله عن توظيف المال في القرية . ان لحاجاته الاجتماعية في المدينة

افضلية او اسبقية لهذا المال .

وعلى هذا الاساس نجد ان نظام المرابعة ينتهي بافقار المالك والمرابع والأرض معاً لأن عدم الاهتمام بمستقبل الارض وعدم القيام بالاصلاحات الاساسية والانشاآت الثابتة فيها ـ الامر الناتج عن ان المرء الذي يستغلها لا يملكها فلا يجني فائدة هذه الانشاآت ، والمرء الذي يملكها يعيش بعيداً عنها ولا يستغلها مباشرة فيضن عليها بالرأسمال الكافي ـ هذا الاهمال يجعل انتاج الارض يضعف سنة بعد سنة او قل جيلاً بعد جيل . ولا بد من التلميح ولو عرضاً الى علاقة هذا الموضوع بالتقهقر الزراعي الذي وقع في هذه البلاد فحوّل تدريجياً « أهراء روما » الى ارض لا تكفي ساكنيها على قلة عددهم ! فالثروة الزراعية الخاصه والعامة تتدنى بسبب نظام المرابعة الناتج عن ملكيات كبيرة تعوّد مالكوها ان لا يستغلوها مباشرة . والثروة الزراعية هي أساس دخل الأمة ، فضياع هذه الثروة ونقصان هذا الدخل يجرّ البلاد الى حالة من الفقر يجعلها غير قادرة على تحمل أعباء الدولة ومسؤولياتها وهذا يؤدي الى تضاؤل الاعمال الاصلاحية في نواحي الحياة المختلفة من معارف وصحة الخ ، فتتأخر الأمة

ويتدنى مستواها الاجتماعي ولا تجاري العالم المتمدن بتقدمه ورقيه .

وبالمقابلة نجد ان المناطق التي تعمّ بها الملكيات الصغيرة ـ تلك الملكيات التي يستغلها مالكوها مباشرة ـ هي اعظم انتاجاً واكثر ثراءً وأنعم حياة من المناطق الاخرى . « اعط الرجل ملكية ثابتة في صخر فيحوله الى جنة ، واعطه جنة ليستثمرها فيجعل منها ارضاً قاحلة » [1] .

٢ ـ تأثير الاقطاعية من حيث المجتمع

ان الامة التي يعيش السواد الاعظم من سكانها في الريف ومن مهنة الزراعة ، تنطبع مدنيتها بطابع سكان الريف ويرتقي مجتمعها بقدر ما تسمح به الحياة الاجتماعية الريفية . والدولة التي يرتكز كيانها على سكان القرى

(١) في احدى قرى سهل عكار في لبنان قرية خصبة التربة تقسمها ساقية الى قسمين شرقي وغربي . يملك القسم الشرقي « البكوات » ويستغلونه بواسطة المرابعين ويملك القسم الغربي المزارعون ويستغلونه بايديهم . ان ثمن الارض في القسم الغربي هو اربعة أضعاف ما هو عليه في القسم الشرقي المماثل له من حيث التربة . والحالة الزراعية والاقتصادية والاجتماعية تختلف كل الاختلاف بين القسم والآخر وكأن المقابلة بينهما هي مقابلة بين شعبين او بين عصرين من عصور التاريخ !!!

والارياف تعلو وتهبط بقدر ما لهؤلاء السكان من قوة ومعرفة بانشاء الدولة وبالمحافظة عليها .

والمستوى الاجتماعي العام لسواد الامة هو مقياس مدنية الامة وميزان حيثيتها . اما ما يبدو من مظاهر الرقي والتمدن على عدد من الافراد في المدن او على جزء ضئيل من الامة فلا يعبر عن حقيقة الامة ولا يدل على ما تنطوي عليه من ضعف او قوة .

وسكان الريف يكونون الاغلبية الساحقة من سكان الدول العربية . وهم اساس هذه الامة .فعلينا اذاً ان نتبصر حقيقة هذا الاساس الذي نشيد عليه دولا جديدة ، لنرى ما اذا كانت هذة الاغلبية من السكان تكوّن ركناً قوياً نستند اليه او عبئاً ثقيلاً نرزح تحته .

تبين لنا مما تقدم ان نظام توزيع الملكيات الزراعية قد جعل طبقة ضئيلة من الشعب تملك القسم الأكبر من الاراضي الزراعية وتستغله بواسطة الجزء الكبير من الشعب الذي لا يملك ارضاً . ورأينا كيف ان هذه العلاقة غير الطبيعية بين المالك والمرابع والارض تودي اقتصادياً بالمالك والمرابع والارض وتهدد اقتصاديات الدولة بالبوار . فما هو فعل هذه الشراكة

الثلاثية بالحياة الاجتماعيـة الريفية .

من اولى سيئات نظام الاقطاعية انه شطر المجتمع الريفي الى شطرين : شطر المالكين وشطر المرابعين . وقد تمادى المالكون بتطور مجتمعهم حسبما أوحته الحالة التي يستغلون بها الارض ، وتمادى المرابعون ايضاً بتطور مجتمعهم في اتجاه آخر ، فاتسعت الشقة بين الاثنين بقدر ما ابتعدا عن الصراط المستقيم . فنشأت من جراء ذلك مشاكل المجتمع الريفي التي تحول دون القيام بنهضة زراعية .

أ . تأثير الاقطاعية في حياة المرابعين

يسمو الانسان وينحط بالنسبة للمحيط الذي يعيش فيه ولنوع الحياة التي يحياها والعمل الذي يعمله . وهذا المحيط الاجتماعي او المادي يؤثر في نفسيته وفي مستواه الثقافي والاجتماعي .

ان سكان القرى يعيشون في بيئة مستقلة . وأحوالهم المادية والاجتماعية لا تسمح لهم بالاتصال او الاحتكاك بمجتمع غير مجتمعهم ، لهذا تكونت لهم شخصية خاصة هي وليدة البيئة الطبيعية المادية التي تحيط بهم منذ أجيال

عديدة ، والتي أصبحت جزءاً منهم . ونوع ملكية الارض هو المحور الذي تدور حوله مختلف القضايا الاجتماعية في القرية والعامل الاساسي في تكوين تلك البيئة الطبيعية المادية . هنا نقطة الابتداء او علة العلل لما نجده في القرية من مشاكل اجتماعية وثقافية واقتصادية وصحية .

ان امتلاك الارض يوحي للمزارع شيئاً من الطمأنينة النفسية فيجعل منه انساناً حراً مفكراً يقدر القيم العليا في الحياة البشرية ويسعى اليها . بينما عدم امتلاك الارض وتحكم الملاك بالفلاح وعائلته حسب مشيئته وأهوائه ، يجعل الفلاح ينحط من درجة الانسان الى درجة المادة فيصبح جزءاً مادياً من الحقل ليس الا . والمرابع الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، والذي يرى في كل ساعة عياله مهددة بالجوع والتشرد ، الفلاح الذي لا يعرف الطمأنينة ، يخسر كل ما فطر عليه الانسان من الصفات العليا . ان نفسية المرابع هي التي تتحطم على مذبح اللاملكية . فالمرابع يرى الفرق بينه وبين صاحب الملك ، وبالنسبة للمعاملة التي يلقاها منه ، فانه ينحط بنفسيته الى مستوى نفسية العبد ، فيخسر بذلك مزية الطموح التي تعلو بالبشر وتوجد فيهم النشاط

والجد والاجتهاد والتضحية . الطموح الذي يفتح أفاقاً جديدة ويخلق طلباً وحاجة لقيم عليا ويدفع الانسان دوماً للتقدم والنهوض ، هذا « العنصر » الفعال في نهضة الامم هو مفقود عند طبقة الفلاحين ـ غير المالكين ـ الذين يكونون القسم الأكبر من الامة . ان كنز القناعة الذي لا يفنى هو الكنز الوحيد الذي نالوه من خيرات هذه الدنيا ؛ فتراهم يقنعون بالقليل ، والقليل جداً ، من خيرات الارض وبعدما تتيسر لهم مؤونتهم من البرغل والحنطة او الذرة وبعض الضروريات الاخرى ، يكتفون بما رزقهم الله ـ فينامون او يسهون مطمئنين قانعين . فالايام التي يقضيها الفلاح عاطلاً عن العمل في بعض القرى تفوق عدد ايام العمل . اما ساعات الفراغ الكثيرة فانه يقضيها ساهياً بالقهوة او المضافة او انه لفرط كسله يفترش التراب في الشمس الحارقة .!

وقلة الطموح هذه تجلب ايضاً عدم الرغبة بطلب العلم . فالمرابعون اجمالا اميون لا يقرؤون ولا يجدون لتعليم القراءة موجباً . وما ذلك لان المدارس غير متيسرة في قراهم بل لان هذه الصفة تلازمهم اين كانوا . فان الدراسات العلمية لوضعية

المرابعين في الولايات المتحدة قد اظهرت حقيقة هذا الامر . ففي احدى مقاطعات « ميصوري » تبين ان ١٢،٧ ٪ من ابناء المرابعين قد انهوا صفاً معيناً من المدرسة ، بينما ٣٢،٧٪ من ابناء المالكين قد انهوا ذلك الصف (١) .

والمرشدون الزراعيون او المصلحون اجمالا يجدون كل الصعوبة في حمل المرابعين على قبول آراء جديدة او اقتباس اعمال مفيدة ، بينما نرى ان صاحب الملك ، مهما كانت ملكيته صغيرة ، فانه يطلب العلم والتقدم لنفسه ويربي اولاده على ذلك ايضاً .

ان هذا الخمول الفكري والجسدي هو الذي يجعل طبقة المرابعين عثرة في سبيل التقدم والنهوض .

وبالاضافة الى ما تقدم فان الصفات الاجتماعية المثلى التي يتحلى بها الانسان تضمحل قيمتها عند المرابعين . فعزة النفس ، هذه الصفة التي يمتاز بها المزارع الملاك ، تكاد تكون مفقودة عند المرابعين الذين تعودوا الخضوع والخنوع لمشيئة سيدهم صاحب الملك . والافتقار لعزة النفس يولد في الانسان الكثير من النقائص الاجتماعية . فالكذب والسرقة

---

(1) Gillette - Rural Sociology P. 249 .

والرياء والاحتيال كلها صفات تنمو وتنتشر في البيئة التي يكون فيها الانسان ضعيفاً بنفسيته غير مطمئن لمعيشته وعبداً لسيده .

قد يظن ان هذه الصفات هي ملازمة للفقر والجهل الذين يخيمان على حياة الفلاح المسكين . حبذا لو كان الامر كذلك . ان الفقر الحقيقي هو فقر الروح والنفس لا فقر المادة وهذا الفقر الروحي تراه مجسماً في حياة العبودية التي يحياها المرابع . اما البدوي الذي لا يحسد على غناه المادي فهو لا يزيد المرابع ثقافة او علماً او ثروة ولكنه بروحه الاستقلالية وحياته الديموقراطية يتمتع بصفات نبيلة يفتخر بها . بينما المرابع الذي يعيش في ظل الاقطاعية بما فيها من اخضاع وتحقير للنفس وبما في حياته من تزلف ورياء واحتيال ، فانه يخسر الصفات العليا التي يمتاز بها ابن القرية على ابن المدينة والتي هي حقاً فخر للأمة ودعامة اجتماعية كبرى .

فالمرابعة ليست شراكة او علاقة تجارية اقتصادية بين المالك والفلاح فحسب ، بل انما هي نسق معيشة ـ هي طراز من المجتمع البشري له صفات اجتماعية خاصة تبعد كل

البعد عن الصفات التي يبتغيها الانسان لبني قومه لانها صفات تدعو للفقر والجهل والتأخر ، ولا تؤول الى التقدم والرقي . والمجتمع الريفي الذي تبرز به حالة اللاملكية يصبح عبئاً على الأمة وعقبة في سبيل نهضتها الزراعية والاجتماعية .

ولا حاجة بنا لبناء نظرياتنا على التقدير ولاستعارة امثلة من الخارج لاثبات هذه الحقيقة . فلبنان البلد الراقي الناهض الذي يشار اليه بالبنان هو خير شاهد على ما اقول . لقد سار لبنان في تطوره الاجتماعي شوطاً بعيداً وفاق غيره من الدول العربية في هذا المضمار . قد يعزى هذا التقدم الى اسباب عديدة منها استقلال المتصرفية والهجرة وانتشار المدارس الاجنبية الى آخره من الاسباب التي لا ينكر تأثيرها على الحياة الاجتماعية في لبنان .

انما من يدرس حالة لبنان بتدقيق ويحتك بالقرى المختلفة فيه لا يسعه انكار تأثير الملكية الصغيرة على المجتمع القروي اللبناني . ان الرقي الاجتماعي المعروف عن لبنان هو رقي محصور في جبل لبنان ـ او قل لبنان الصغير او القديم . ولو أعددنا خريطة عامة للبنان الحالي وبيّنا فيها توزيع الملكيات الصغيرة وانتشار الاقطاعية لوجدناها تنطبق كل

الانطباق على خريطة الرقي الاجتماعي . فالقرى التي يملكها مزارعوها ـ ملكيات صغيرة ـ هي القرى التي تفوق غيرها اجتماعياً . وان ما يستلفت النظر في القرى اللبنانية من نظافة المساكن والسكان ، وكرم الاخلاق وصدق المعاملة وعزة النفس وحسن المعشر وسعة الاطلاع والرغبة بالعلم والجد والنشاط ومقاومة الطبيعة للحصول على القوت اللازم ، كلها صفات منحصرة في القرى اللبنانية التي لا اقطاعية فيها . اما المناطق التي لا تزال الاقطاعية مسيطرة عليها فهي ذاتها المناطق المتأخرة في لبنان والمناطق التي يجد لبنان الصعوبة الكلية في رفعها لمستواه الاجتماعي . فالجهل ، وقلة الامن ، والتفكك الاخلاقي والاجتماعي ، وضعف الانتاج الزراعي كلها صفات مجسمة في لبنان الاقطاعي كما هي في اي بلد اقطاعي آخر . وانك لتجد بالمقابلة مع ذلك بعض القرى الفقيرة النائية في المناطق التي عمت بها الملكية الصغيرة ، هذه القرى البعيدة عن العلم وعن مدينة بيروت ، القرى المنعزلة في اعالي الجبال ، تجدها تنعم بمستوى اجتماعي عال واهلوها يتصفون بالصفات الخلقية الكريمة التي لاتجد لها مثيلاً في المناطق الاقطاعية مهما كانت غنية ومهما اقتربت

من المدينة واحتكت بالمدنية الحديثة . وان المرء ليذهل عجباً عندما يشاهد الفرق بالاخلاق والطموح والمستوى الاجتماعي العام بين قريتين جارتين احداهما اقطاعية والاخرى مملوكة من قبل أهليها !

لنترك امثولة لبنان وننتقل الى منطقة اقطاعية تامة حول معرة النعمان في سوريا . في تلك المنطقة بلدة صغيرة فقيرة تدعى كَفْرَنْبَل يملك ارضها اهلوها بينما جميع القرى المجاورة لا ملكيات صغيرة فيها . ان اخلاق سكان هذه القرية تستلفت النظر . فالنشاط والمثابرة على العمل والطموح والارتباط بالارض مع عزة النفس وكرم الخلق وصدق المعاملة كلها صفات مجسمة في سكانها بخلاف الحالة مع سكان القرى المجاورة الذين لا يختلفون دينا او علماً او جنساً عنهم .

ان ملكية الارض تجعل المزارع قيمة معنوية في نظر نفسه . واحترامه لنفسه يجعله شخصاً محترماً بين أقرانه . ان ملكية الارض تعطي للعائلة كياناً ثابتاً وارثاً اجتماعياً وشعوراً بضرورة المحافظة على هذا الكيان والارث . ان ملكية الارض تصهر النفس وتطهر الفكر وتقوي القلب فتجعل من

المزارع انساناً . ان ملكية الارض تخلق في الريف مجتمعاً قوياً صحيحاً يعدّل ويصحح ما تتعرض اليه الامة من نقص في اخلاق سكان المدن .

ان عظمة الامة لا تقاس بعدد سكانها ولا بمساحة أرضها ، حتى ولا بثروتها المادية ، بل بنفسية أفرادها وأخلاقهم . والامة التي لا يملك القسم الاكبر منها أرضاً لن تتصف بصفات السيادة ولن يكون لها عظمة ثابتة . قال وولرس محللاً الحالة الريفية في البلاد العربية ما يلي : « كيف تبنى امة وتقوم دولة في ظروف كهذه ؟ (اي ظروف الجهل والفقر وعدم ملكية الارض) انهم لن يشيدوا امة على اكتاف سكان المدن والطبقة المثقفة مهما علا شأن هؤلاء . هنا نجد احد الاسباب الرئيسية للتضعضع السياسي في بلاد الشرق ولعدم امكانية هذا الشعب من تنظيم دولة : الشرق الادنى العربي لا يرتكز على أساس ريفي متين»(١).

ب . تأثير الاقطاعية في حياة الاقطاعيين

درسنا فيما سبق من هذا البحث تأثير الاقطاعية في انتاج الارض او الثروة الزراعية وفي نفسية المرابعين . وشاهدنا

(١) J. weulersse : BuIletin de l'assoc. de geogr. Francaise. no 113 avril 1938 p. 61.

كيف ان المرابعة ليست نظام استثمار فحسب بل هي ايضاً طراز معيشة او نظام مجتمع له صفات خاصة ، وان هذه الصفات هي وليدة الحياة التي يحياها المرابع .

والمرابعة هي بدورها وليدة الاقطاعية ، والاقطاعية ليست نظام استثمار فحسب بل هي أيضاً طراز معيشة او نظام مجتمع له صفات خاصة هي بذاتها وليدة الحياة التي يحياها الاقطاعي . فالاقطاعية قد تركت في الاقطاعي نفسه أثراً لا يقل وضوحاً عن أثرها في حياة المرابع .

يسكن الاقطاعي او الملاك الكبير داراً فخمة في المدينة بعيداً عن أرضه ومزارعه ويوكل أمر ادارة الارض الى وكيل يتحكم بالقرية ومرابعيها . والوكيل (وقد لا يلبث ان يصبح اصيلاً !!!) يقدم لصاحب الملك نصيبه من غلال القرية . فالملاك في معظم هذه الحالات لا يشرف بنفسه على ادارة أرضه فهو مثال الـ Absentee Landlord او « المالك المتغيب » . والمالك المتغيب هذا يجهل الزراعة وادارة المزارع ولا يظهر اي اهتمام في انعاش مزرعته فلا تراه في القرية الا في موسم البيدر حيث يجيء لمقاسمة المرابعين بعد

ان يكون قد فات ما فات (١) .

اما من الناحية المعنوية والاجتماعية ، فملكية الارض الواسعة تخلق في نفسية الملاك روح التكبر عن العمل والاستهتار بالمادة . فهو يعيش منذ صغره محاطاً بالخدم والعناية الزائدة ويربى في بيته تربية تجعله يشعر بنفسه كأنه محور الكون وكأن الخلق انما خلقوا ليخدموه ولينفذوا أوامره . فالبيك أو الآغا يربّى على الكسل واحتقار العمل . فهو يركب الخيل ويصطاد الغزلان وغيره يحرث الأرض ويقدم له خيراتها . وفي هذا العصر أصبح البيك يرتاد المدن الكبيرة ويؤم المقاهي ليبذر ماله مستهتراً بالدنيا لا يحسب لشيء حساباً . حتى اولئك الذين أنعم الله عليهم بآباء اهتموا بمستقبلهم وأرسلوهم الى المدارس العالية لتحصيل العلوم والثقافة فقد شاهدنا بعضهم رفاقاً لنا في الدروس يستهترون بالعلم والعمل والقانون ويستنكفون عن الدرس والاجتهاد

---

(١) يحكى عن ابن ملاك كبير انه ذهب لقرية والده في موسم الحنطة وجاء برفقة الوكيل يقاسم المرابعين على البيدر . فبعد ان أخذ حصته من الحنطة طلب اقتسام التبن فأخبره الحاضرون ان التبن حسب العاده يعود بكامله للمرابع ، فلم يرق له هذا النظام فأعلن انه لن يسمح بالمستقبل بزرع التبن في قريته !!

كأنهم يقولون : « العلم لمن يطلب صنعة أو مهنة يعيش منها وما أنا من أولئك الناس الذين يحتاجون للعمل في حياتهم » .

وهناك قصة معروفة تمثل عقلية الآغا الذي أرسل ابنه للمدرسة وجاء يوماً يزوره . فرأى ابنه يلعب « التنس » ويجري هنا وهناك وراء الكرة والعرق يسيل من جبينه . فصاح الآغا بالمدير قائلاً : أنا لا أريد من ولدي ان يقوم بهذا العمل المضني فاستأجروا ولداً آخر يركض وراء الكرة بدلا عنه وأنا أدفع اجرته !!

فالاقطاعية تخلق في الملاكين روح التكبر عن العمل وتجعلهم يشعرون كأنهم من جبلة طينتها غير طينة البشر المرابعين . فالملاك يحتقر الفلاحين الذين يعيش من تعبهم ويترفع عنهم ويعتقد انه يتوجب عليهم خدمته والتضحية في سبيله . أما هو وقد نشأ على روح السيطرة واستعباد الغير ، فتراه لا يهتم بالقضايا العامة ولا بالخدمة العامة او التضحية في سبيل المصلحة العامة ما دامت « العامة » تشمل الفلاحين الذين هم من طبقة دون طبقته ، وما دام يعتقد ان مصلحته الخاصة تختلف عن مصلحة العموم . فالاقطاعية

قد شطرت سكان البلد الواحد الى شطرين وجعلت مصلحة الشطر الاول تتنافى مع مصلحة الشطر الآخر فبدا التفكك في الامة منذ اختلفت المصلحة .

ان طبقة الاقطاعيين في البلاد تمثل الطبقة العليا . هي ارستقراطية البلاد . فهي بذلك مثال للأمة يقتدى به ، وحياة هذه الطبقة الاجتماعية وعاداتها واخلاقها هي نبراس يستنير به كل من طلب المعالي . فهل هم يكونون مثلاً أعلى يصح ان تتقدم الامة نحوه ؟ وهل ان في هذا المثل الأعلى القيم العليا التي نبتغيها في حياتنا الاجتماعية ؟

ان ارستقراطية البلدان الاجنبية ترتكز على العلم والمعرفة ، وعلى التربية السامية والاخلاق المجيدة وعلى النشاط وحب العمل فيصح ان تقتدي العامة بهذه الصفات الممتازة الممثلة بالطبقة الارستقراطية . اما ارستقراطية بلادنا فهي وان كانت تنطوي على صفات كريمة من كرم وضيافة ووفاء ، ومجد وحسب ونسب ، فانها من الناحية العملية ارستقراطية « غير عملية » . فعدم الاهتمام بالعلم بالرغم عن تيسر الوسيلة ، وعدم الاقبال على العمل بداعي الترفع والكبرياء ، وكذلك الانانية التي تستحل استعباد الفلاح الفقير والرجعية التي تحول دون

التقدم والتطور حرصاً على مركز العائلة الممتاز ، كلها صفات تجعل من ارستقراطية البلاد قوماً لا يصلحون لقيادة الامة ـ وما ذلك الا لأنهم قوم يأكلون الخبز دون عرق الجبين وينعمون بحياة الرفاهية التي لا يشوبها قلق او وجل من المستقبل .

انظروا الى عائلة اقطاعية مثالية تجدوا فيها ما يمثل الحالة الاجتماعية والمادية خير تمثيل : نشاهد في هذه العائلة عدداً من الشيوخ او المتقدمين بالسن الذين ترعرعوا في الجيل الماضي وعليهم سمات كرم الخلق والمحتد ، كبار باقوالهم واعمالهم شرفاء بتصرفاتهم . وتجدون في هذه العائلة افراداً ترعرعوا في الجيل الحديث ونشأوا في العهد الاجتماعي الحالي حيث تيسرت لهم سبل اللهو والبذخ . فبين هؤلاء تجدون من بذر ماله في سبيل ملذاته وبات لا يملك أرضاً ولا مالا حتى ولا نشاطاً او رغبة بالعمل ويقضي حياته كأنه يقول :

الله يعلم والايام شاهدة انا كرام ولكنا مفاليس

وترى ايضاً في هذه العائلة الكريمة شباباً وهبهم الله صحة وذكاء واقتداراً وورثوا عن آبائهم قطعاً من الارض لا تجعلهم في مصاف الاغنياء . هؤلاء الشبان يقضون زهرة شبابهم في البيت يتقبلون الضيوف ويلعبون « الطاولة »

ويداعبون المسبحة مرتضين قانعين بضآلة مدخولهم متنعمين ومكتفين بكرم حسبهم ونسبهم مترفعين عن العمل كأن العمل أو كسب العيش ليس من شيم الكرام.

ان العائلات التي انتجت فيما مضى قادة الامة ومفكريها قد نهجت في حياتها الاجتماعية الحاضرة نهجاً يجعلها تخسر ما بنيت عليه من قوة وهي في وضعها الاجتماعي الحاضر تنحر نفسها بنفسها وتجر معها هذه الامة الى الهلاك.

٣ ـ تأثير الاقطاعية من حيث الوضع السياسي

ان قوة الامة الحقيقية هي في ما يكمن في قلب افراد الامة من روح معنوية ومقدرة على الانتاج. وقد شاهدنا من بحثنا السابق كيف ان الاقطاعية تزعزع هذه القوة وتبدد الروح المعنوية القويمة بمجرد انها تخلق طبقة من الفلاحين لا تملك ارضاً، وطبقة من الملاكين ترت ارضاً وتستغلها عن بعد دون تعب او شقاء. فلندرس الآن تأثير الاقطاعية في كيان الدولة.

أ ـ الدولة والشعب

الدولة الديموقراطية تستمد قوتها من الشعب. والشعب هو الرقيب على الدولة يصلح ما فسد فيها ويقوم اعوجاجها

ويوجه سياستها الانشائية بواسطة النواب الذين يمثلونه . ان هذا النظام يأتي بخير النتائج عندما يكون تشكيل الامة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية موافقاً لهذا النوع من الحكم .

اقل ما يقال عن الامة العربية بهذا الصدد هو ان تشكيلها الاجتماعي لا يصلح للنظام الديموقراطي . « فالشعب » الذي تستمد منه الدولة قوتها هو بحالة من الجهل والخمول لا تؤهله لرفع شأن حكومته . وكيف نأمل من شعب معظمه يخضع لنظام الاقطاعية ويسلم بكل خنوع امره وحياته للاقطاعي ، شعب يألف الاسترقاق ويرى في نفسه الضعف فيخضع للضيم ويفقد الطموح والاقدام ـ كيف نأمل من شعب هذه هي حالته ان ينشىء دولة او يقوم بنهضة ؟ ان شعباً كهذا هو عامل ضعف لا عامل قوة في تكوين الدولة .

والدولة الديموقراطية لا تقوم على اكتاف افراد قلائل من خاصة الشعب ولن يكون لها حظ بالبقاء والازدهار الا اذا استندت الى ركن متين من عامة الشعب . فكيان الدول العربية اذاً يتوقف على كيان سكان

الريف الذين يكونون الشعب العربي .فان تمكنت هذه الدول من رفع كابوس العبودية عن المرابعين وجعلت منهم قوماً عزيزاً واعياً ، فانه يؤمل لها الاستقرار والتقدم . وان اهملت هذه الناحية فلن يرجى لها خير .

ب . الاستعمار والصهيونية

ان الطبيعة تكره الفراغ فحيث يوجد الفراغ تسعى الطبيعة لاملائه . والقوة تسير ليس باتجاه القوة المضادة بل باتجاه الضعف الجاذب .

ان تفكك الرابطة بين مختلف طبقات المجتمع وضعف معنويات القسم الاكبر من سكان البلاد بسبب عدم ارتباطهم بالارض ، وفقر الفلاحين الذي يحول دون تقديرهم للقيم العليا في الحياة ، ومنها الاستقلال والحكم الذاتي ، كل هذه الامور تجعل بلادنا لقمة سائغة للمستعمرين . كذلك ان الثروات الدفينة في تربتنا والاراضي الشاسعة التي لا تستغل بسبب سوء النظام الاجتماعي والاقتصادي تجعل من هذه البلاد مطمعاً للمستعمرين .

وهذه الحالة التي نصفها هي ذاتها التي شجعت ادعاء

الصهيونية بالبلاد العربية . فان ارض الميعاد ما كانت لتخطر ببالهم لو انها كانت بقعة في المانيا او انكلترا حيث لا امل لهم بالسيطرة عليها . ولكن وجودها في بلد تفككت قواه وبين شعب يعيش لا في القرن العشرين بل في العصور القديمة وفي ارض معظمها « موات » لا تستثمر ، كل هذا جعلهم يجدون « فراغاً » يملؤونه بصهيونيتهم ويستعمرونه باموالهم .

ان استعباد الفلاح تحت ظل الاقطاعية ـ وحالته الاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن ذلك ـ هي من اهم البراهين التي يستعملها الصهاينة في فلسطين لتبرير عملهم . انهم يدّعون امام الرأي العام العالمي ان الارض التي اشتروها هي ارض الاقطاعيين الذين يعيشون في المدن ويستغلون اتعاب الفلاحين . وانهم بشرائهم الارض قد رفهوا عن الفلاحين وزادوهم علماً وثروة ورفاهية . وقد ذكر الدكتور لودرملك في كتابه « فلسطين : ارض الميعاد » وهو كتاب دعاية صهيونية ، ذكر الكاتب هذه الناحية فقال :

« ان النظام الاقطاعي في بلدان الشرق الادنى هو العامل الرئيسي الذي يحول دون حصول الفلاح العربي على

مستوى معيشة عال » (١). وقد وصف حالتنا السياسية والاجتماعية وصفاً مؤلماً ولكنه مع الاسف وصف صحيح لوضع ادمناه نحن فتعامينا عنه ، فشاهده العدو بكل وضوح واستفاد منه ، قال :

« في جميع بلدان الشرق الادنى قد ارتكز نفوذ الطبقات الحاكمة منذ القدم على استغلال الفلاح استغلالا لا هوادة فيه . ان نظاماً يقوم على هذا الاساس هو نظام نخره السوس فهو يتصدع عند ظهور اقل عاصفة ويتحطم عندما تستفيق النفوس الذليلة ويندلع فيها لهيب الثورة » (٢)

ج . الشيوعية

تنتشر الشيوعية حيث تجد لنفسها بين طبقات الشعوب التعيسة ارضاً خصبة . ووضعيتنا الاجتماعية والاقتصادية هي مرتع طبيعي للشيوعية . ان تاريخ العالم يردد حوادث النزاع بين الطبقة العليا الضئيلة العدد والطبقات الدنيا الكثيرة العدد . لقد ظلم الاقطاعيون في فرنسا طبقة الفلاحين فما لبثت ان ظهرت الثورة الافرنسية فحررت الشعب . وكانت حالة

(١) Loudermilk - Palestine : Land of Promise P. 149

(٢) Loudermilk - Palestine : Land of Promise P. 148

الاقطاعيـة في انكلترا شديدة الوطـأة تهدد بثورة داخليـة وجاءت الحركة الصناعية فتحول الفـلاحون من مرابعين الى عمال في المصانع فانحلت الازمـة وتخلصت انكلترا بطريقـة طبيعية من شرور الاقطاعية . وقد كان من جراء هذا الانعتاق ان تشكل مجلس العموم البريطـاني وتقـدمت البـلاد ليس فقط اقتصادياً ، بل ايضاً اجتماعيـاً وسياسياً بعد ان رفعت عن عاتقهـا كابوس الاقطاعية . وكانت الحـالة في روسيا على اشد مـا يتصوره الانسان من نظام الاقطاعية واستعباد الفلاحين . فاندلعت فيها الثورة وها هي تنشر في العالم اجمع فكرة الثورة الاجتماعية .

ان نظام الاشتراكية لم يعد غريبـاً عن تفكير الجماهـير البائسة الجاهلة . ولا هم في حصن منيع عنه بل اننا نجـد فيهم كل المؤهلات لقبوله والسير تحت لوائه . فان كانوا في حالة من الجهل والظلمة لا يرون السبيل اليه ، فسيأتي يوم تنفتح امامهم السبل ولات ساعة مندم .

فان كان النظام الاقطاعي نظاماً موافقـاً للاجيال الماضية فذلك لان في تلك الاجيال لم تكن البلاد معرضة للعوامل الخارجية التي تتعرض اليها الآن . وان كان في التصدي الى

هذا الموضوع في الوقت الحاضر بعض المصاعب الداخلية فان السكوت عنه يوقعنا ـ بل قل قد اوقعنا وسيوقعنا ـ بمشاكل خارجية هي اشد وطأة واكثر حرجاً من المشاكل الداخلية .

ليس هذا مجال استعراض طرق الاصلاح انما لا بد قبل الانتهاء من بحث هذا الموضوع من ذكر ضرورة القيام بجميع الاعمال التي تؤول الى تبديل الحالة تبديلاً سريعاً . فنقل السكان من الاراضي القاحلة الى الاراضي الخصبة وتحرير المشاعات وتوزيع اراضي الدولة وتشجيع تقسيم الممتلكات الكبيرة ، كلها امور تؤدي الى اصلاح الحالة . وان ما تسببه هذه المشاريع الاصلاحية من قلق لولاة الامر وازعاج وتعب هو امر لا يذكر بالنسبة لما تعود به هذه الاعمال من فائدة اجتماعية وسياسية واقتصادية للبلاد العربية .

ان الدولة التي يكون سوادها الاعظم مرابعين لا يملكون ارضاً ، لا يقدر لها ان تكون دولة قوية البنيان . والامة التي يكون سوادها من طبقة الفلاحين الذين لا يملكون ارضاً ، لا يمكن ان يكون لها نظام اجتماعي واقتصادي قويم ترتكز عليه . بل بالعكس فحيث توجد هذه الحالة التي وصفناها ينخر السوس جسد الامة ويحول دون تقدمها

وتطورها . والشعب الذي يتشكل من طبقتين متناقضتين بالمصلحة ، طبقة ارستقراطية تنعم في بحبوحة من العيش ، وطبقة تعيش تحت رحمة صاحب الملك في جو من الفقر والجهل والذل والخنوع ـ شعب يتشكل من هذه العناصر ويرتكز على هذا الاساس الضعيف الواهي ، لا يمكن ان يكون له الحيوية الضرورية والقوة المعنوية والمادية اللازمة لخوض معركة التنازع للبقاء .

التراث الديني

لقد طغى الدين « على التفكير العربي فأصبح الدين هو القياس الاعظم والشرح الاوفى والمرجع او الواسطة العامة لكل عمل وكل تفكير. »

احمد امين

« لقد جاء الدين ليحرر البشرية من الوثنية وعبادة الاصنام فكان أن جعلنا منه صنماً جديداً من الوهم وتقييد الفكر ، نعبده ونقدس ذكره . »

●

الدين ... وما علاقة الدين بالزراعة ؟! الدين ايمان وعبادة والزراعة علم وعمل ... الدين صلاة وتقوى والزراعة كدّ واجتهاد ... الدين تطلع الى السماء والزراعة تحديق بالارض .. الدين هو علاقة الفلاح بخالقه والزراعة هي علاقة الفلاح بارضه وحيواناته ومزروعاته ... فما بالنا اذاً ونحن في استعراض

امور زراعية دنيوية نتدخل في امور الدين ؟!

هذا هو السوآل بعينه الذي يحدو بنا الى التدخل في أمور الدين : لماذا هذا التداخل بين الموضوعين ؟

نعم ، لماذا التداخل ؟.. او بالاحرى ما هو دخل الدين في الزراعة ؟ يصاب التفاح بالدود ـ فيقول الفلاح « هـذا من الله » وتصاب مواشيه بوبأ فتموت فيعزو ذلك « لله » وتمحل المواسم وهذا ايضاً « من الله » . فكيف لا يكون للدين و « تعاليم » الدين علاقـة بالنهضة الزراعيـة ؟ تموت الاطفال في القرية فيتعزى الفلاح بقوله : « الله جابهم والله أخذهم » ـ الله في نظرهم وفقههم هو « الطب الواقي » . ترشدهم الى عمل زراعي او صحي فيعتصمون بالآية الكريمة « انك لا تهدي من احببت ان الله يهدي من يشاء » !! فالفلاح بسبب جهله وانحطاط ثقافته لا يفقـه حكمة الدين ولا يلتقط منه سوى القشور وكلـما زاد « تديناً » زادت كثافة القشور حول بصيرته وزاد هو رجعية وتمسكاً بهذه القشور . ودين الفلاح هذا هو السلطة العليا والحكم الاعظم في قضايا الدنيا والاخرة . فمن هذه الناحية نجد للتراث الديني اعظم تأثير في الاعمال الزراعية وفي النهضة الريفية .

الدين هو احد العوامل الاجتماعية الكبرى التي تؤثر في عقلية الشعب وتطبعه بطابع خاص . وهو العامل الأول الذي يدخل في صميم تصرفات الافراد والجماعات ويقرر او يحدد انفعالاتهم . وقد يكون له اثر سيء جداً في تفكير الافراد والشعوب . فلا يسعنا والحالة هذه أن نهمل هذه الناحية من الدرس والتحليل . انما للدين حرمة علينا . فالفكر يجول حراً في جو طليق الى ان يصل الى حدود الدين فيقف امّا خاشعا او وجلاً ...!

عندما يخلو احدنا لنفسه ، ويفكر في العامل الديني وآثاره في حياتنا الاجتماعية ويجول فكره حراً طليقاً من القيود والتقاليد يدخل في بحر واسع مملوء بالمساوىء والفظائع فيرى الاخطاء والاجرام التي ترتكب باسم الدين ويرى كيف ان البدع الدينية تشجع الجهل والاستعباد الاجتماعي وتقف في وجه التطور العمراني ـ يرى كل هذا بوضوح وبشكل مجسم كبير ، فتهيج في نفسه الثورة فيحول ويصول ويرعد ويزبد ... ثم يجلس ليشرح ويدون ما جال بفكره فيرى قلمه يسير بطريق وعر اذ هو يصطدم بحرمة الدين واحترام الاتقياء ويجابه عصمة الدين والمتدينين ، ويرى عقلية

الشعب التي تنزه الدين ولا تفرق بينه وبين بدعه وقشوره وتقدس مركزه وتثور بدون وعي او تفكير على كل من يجرأ أن ينظر اليه بعين الشك او الانتقاد. يرى ان التعصب للدين يجعل انتقاد البدع الدينية من أجل الاصلاح عملاً من شأنه ان يوجد رد فعل يزيد التعصب ويدفع الناس في المحافظة والتسليم والانقياد ـ فيقف متردداً بين الهجوم والتراجع، بين الاندفاع والتريث.

اذا أصيب مريض بمرض عضال لا شفاء منه يجوز اخفاء الحقيقة عنه حتى يأتي اجله. أما الأمة فلن يأتي اجلها !!! ولا فائدة من اخفاء الحقيقة عنها بل ان في ذلك ضرراً لها. فالأمة مصابة بمرض عضال ولن تشفى من هذا المرض الا اذا تنبهت له وشعرت بوجوده، وتحفزت لمعالجته. وما دمنا نتجاهل وجود المرض ونتحاشى ذكره ونخشى كشف الخفاء عنه، فلن نشفى منه. قد يحدث البحث بالامور الدينية ضجة بين الاوساط الرجعية ـ وقد يكون له، في بادىء الأمر، رد فعل سيء ... ولكن لا مفرّ من ذلك ـ والحرب اولها سجال ثم النصرة للحق.

أهمية التراث الديني

ما من عامل اجتماعي يتغلغل في نفوس البشر ويتدخل في امورهم واعمالهم اليومية ، كبيرها وصغيرها ، كالعامل الديني . ولا من عامل اجتماعي تتقيد به عقلية الشعب ، وتحافظ عليه وتحول دون تطوره ، كالعامل الديني . فهو يسيطر على العقل ويحدد عمله واتجاهه . « ان نظرة واحدة اجمالية في تاريخ الدين تدل على الدور العظيم الذي مثلته العقائد الدينية على مسرح الحياة الاجتماعية . ومن اللغو ان يحاول كاتب في التاريخ الحط من شأن العامل الديني في التطور الاجتماعي وان يقتصر على العوامل الطبيعية وحدها ، واذا وجد ما يبرر هذا الموقف في القرن الذي نعيش فيه فلن نجد له مبرراً في القرون الخالية ، لان الدين كما قالت « المعلمة البريطانية » قوة دافعة من اعظم القوى ، فقد ألفت هذه القوة الامم ومزقتها وجمعت الامبراطوريات وفرقتها وأجازت افظع الاعمال المنكرة واوحشها واقسى العادات وافحشها وألهمت الخلق انبل الافعال في البطولة والايثار والاخلاص واحدثت اهول الحروب والثورات والاضطهادات

وجلبت للناس الحرية والسعادة والسلام ، وكانت في بعض الايام نصيرة الاستبداد وفي بعضها الآخر محطمة قيود الاستعباد وكانت حيناً من الزمن اساساً لمدنية جديدة لامعة براقة ثم كانت للتقدم والعلم والفن خصماً عنيداً وعقبة كؤودا » (١)

هذا ما اوجزه الدكتور شهبندر عن شأن الدين في حياة الامم . ولو شئنا مراجعة التاريخ للتثبت من صحة ذلك لوجدنا الامثلة عديدة للدلالة على شدة تأثير الدين والتعاليم الدينية في جميع نواحي حياة الافراد والجماعات . وقد بقي الدين على احقاب التاريخ المتتابعة بيت ابرة (بوصلة) سفينة المدنية يحدد مجراها ويقرر مسراها ويطبعها بطابع خاص . جاء الدين الاسلامي مثلاً يحرم عبادة الاصنام والصور فانقرض فن التصوير في العالم الاسلامي . وكان العلم في العصور الوسطى في يد الكنيسة وكانت الكنيسة تتقيد باصول مسيحية تحول دون تقدم العلوم فبقيت العصور الوسطى عصور الجهل والظلام (٢).

(١) الدكتور شهبندر القضايا الاجتماعية الكبرى ص ١٤٥ .

(٢) حرمت الكنيسة تشريح الجسم البشري وحالت دون تقدم الطب حتى انها حكمت بالنفي على اول طبيب شرح جسم رجل واعلن للناس ان في جانبي الجسم عدداً متساوياً من الاضلاع .. اذاً من اين نزع الضلع الذي صنعت منه حواء ! ؟ ـ هذا مناف للدين . . ارجوه ... ! حتى جاء المحامي و « افتى » انه كان في جانب آدم ضلع اضافي ، هو الذي انتزعه الخالق وصنع منه حواء ... فاوقف تنفيذ الحكم.

وفي بدء العهد الاسلامي كان الدين حافزاً للنشوء العلمي وكان طبيعياً « ان يتأثر العلم بالدين فكانت اولى العلوم الفقه والتشريع نتيجة درس الحديث الشريف ، واللغة والنحو نتيجة القرآن الكريم» (١) . ومنذ ذلك الحين والدين يسيطر على عقلية الشعب العربي واجتماعياته واعماله . وقد طغى الدين « على التفكير العربي فاصبح الدين هو القياس الاعظم والشرح الاوفى والمرجع او الواسطة العامة لكل عمل وكل تفكير »(٢) واصبحت مدنيتنا مدنية دينية تقليدية تسير بخطى بطيئة ضمن قيود وضعت بالماضي الغابر لعهد أو عصر سابق . واصبحنا نعمى عن رؤية ما يجول حولنا ولا نعي الا ما جاء في العصر الذي ظهر به ديننا ، كالرجل الخرف الذي يذكر ما حصل في ايام صباه ولا يعي ما يجري حوله في ساعته . واصبح مجتمعنا مجتمعاً يتأثر بالماضي ويتقيد به ولا يشعر بالواقع الراهن ولا يتعرف اليه .

هذا هو فعل التفكير الديني في المجتمع . اما فعله في عقلية الافراد فلا يقل أثراً ولا غرابة . فان للدين فعلاً مجهولاً

---

(١) احمد امين ضحى الاسلام الجزء الثاني صفحة ٣٦٢ .

(٢) ضحى الاسلام الجزء الثاني صفحة ٨ .

في عقلية الفرد شبيهاً بفعل المسكرات التي تفقد الانسان قوة التمييز العقلي المنزه . كنت مع صديق لي اجوب الشوارع في مدينة اوروبية واستلفت نظرنا حانوت لحام فوقفنا نطري نظافته وخلوه من الذباب والاوساخ . وقابلنا هذا الحانوت بحانوت لحام في بلدنا وتذكرنا بأسف شديد ثياب اللحام القذرة والذباب يغطي الخاروف ويعمي العيون . وعطف هذا الصديق الذي عاش في فرنسا عدة سنوات على حديثنا بقوله : « هذا صحيح ، ولكن ألا تعلم ان رغم هذا الفرق الواضح بالنظافة فاني ارى ان لحام بلادنا هو اطهر من هذا اللحام ؟ » ـ .. يعني ان حول الملحمة من « الروحيات » ما يجعلها « اطهر » من الملحمة الصحية النظيفة !. وذلك يعني ايضاً انه رغم درس العلوم الصحية والبيولوجية عدة سنوات في الجامعات ، لا يزال يعتقد ان « الطهارة » شيء والنظافة شيء آخر !

ولو جئنا نعدد الامثال والحوادث التي تدل على تقيد عقلية الفرد بالتعاليم الدينية وعلى الشعوذة باسم الدين ، لطال البحث في تكرار ما يدركه العامة والخاصة . لقد أنزلت الاديان وكانت تعاليمها من كلام الله كي لا يعبث بها البشر ... فاحتال القيمون عليها وفسروها وشرحوها حسب

حاجاتهم وجعلوا منها لا حكمة يهتدي بها البشر بل آلة ووسيلة لرغباتهم وسياستهم الدنيوية . فطغت البدع الدينية على اساس الدين واصبحنا لا نفرق بين الاثنين وبتنا نتخبط في مجاهل البدع ونحرم من فوائد الدين ثم نجاهر بفساد هذه البدع ولا نجرأ على مخالفتها .

لقد جاء الدين ليحرر البشرية من الوثنية وعبادة الاصنام فكان ان جعلنا منه صنما جديداً من الوهم وتقييد الفكر ، نعبده ونقدس ذكره .

التراث الديني

« اول ما يجب على العبد معرفته هو الله ، وقيل الشك (١) » ! أعطي المرء العقل كي يستنير به ويستطلع الحقائق بواسطته . والشك في أمر ما هو التساؤل عن حقيقته ، وليس في التساؤل عن تأثير التراث الديني في حياة شعبنا جرم او الحاد .

جاء في كتب الدين تعاليم وآيات هي الحكمة بذاتها. « احبوا بعضكم بعضاً » « احب الناس عند الله انفعهم لعياله »

(١) عضد الدين الايجي — في كتاب المواقف

« الدين محبة » ، « انما الدين المعاملة » ، « أطلب العلم ولو في الصين » . كلها أقوال خير ... هي الدين بذاته . ولكنها هي دين الكتاب وهو غير الدين العملي . هي ثياب العيد لا اللباس اليومي . هي دين يكاد يكون غريباً عن البشر . اما الدين الثاني ، دين العمل والمعاملة ، الدين او التدين الذي يسيطر على مدنيتنا وعلى تصرفاتنا الفردية فهو الدين الملموس الذي نحن الان بصدده . وما العبرة لاقوال او تعاليم دينية تدعو الى طلب العلم والتقدم والرقي ، بل العبرة لمجموعة التراث الديني و « ناتج » او حاصل التعاليم الدينية . والثقافة الدينية بمجموعها لا باجزائها ومفرداتها هي مقياس حسن او سوء التراث الديني . وناتج هذه الثقافة او حاصل هذه العقلية هو مجموع ما نشاهده في تصرفات الشعب الذي يدين بها .

اننا نشاهد على مسرح السياسة اضرار العوامل الدينية التي تفرق الشعب وتبدد قواه ، فنعزو ذلك الى التعصب الديني الذي يجعلنا نتعصب لطائفتنا فيثور المخلصون فينا الى الدعوة لمحاربة الطائفية التي تهدد كياننا . ولو دققنا في الأمر لوجدنا ان التراث الديني يذهب الى ابعد من ذلك فلا يؤثر في تصرفات الطوائف نحو بعضها البعض فحسب ، بل في

تصرفات الافراد نحو بعضهم البعض وفي تصرفات الفرد نحو نفسه ايضاً. وهذه التصرفات الناتجة عن التراث الديني تفعل في هدم كيان الشعب وافساد معنوياته واعماله اشد مما يفعل التعصب الطائفي الذي ما هو سوى تحزب سياسي مطل بقليل من الدين.

واننا نبحث فيما يلي بعض التعاليم الدينية «المجسمة» التي تركت اثراً سيئاً في عقلية الفلاح وجعلت منه عاملاً محافظاً غير صالح كعماد للنهضة الريفية.

أ - الاتكال على الله

«اول ما يجب على الفرد معرفته هو الله» والايمان بالله هو احدى العقائد الرئيسية في الدين. انما هذا لا يجعل الله كل شيء في العلاقة بين البشر وخالقهم لان الله شاء أن يكون للانسان ذاتية غير ذاتية ربه. ولكن التربية الدينية جعلت من الله كل شيء وكأنها بذلك رفعت كل مسؤولية عن عبده. (ان شاء الله)، (توكلت على الله)، و(ما توفيقي الا بالله)، (لا حول ولا قوة الا بالله)، هذه العبارات التي تردد دوماً وابداً وفي كل مناسبة جعلت

فكرة الاتكال على الله والاعتماد عليه في مقدمة تفكير العامة واصبح الأنسان اتكالياً لدرجة انه اضاع شخصيته باتكاله على خالق الكون . والفلاح يعمل في بيته وحقله كأنه يقوم باقل ما يترتب عليه من واجبات متكلاً على الله لاتمام العمل فهو على كل شيء قدير ، وما توفيقي الا بالله ... اما قول النبي العربي (اعقل وتوكل) فقد ضاع في بحر الاتكال التام . « وبديهي ان مثل هذا الاتجاه التوكلي المطلق والاستسلام للعوامل الخارجية ولو كانت طافحة بالخير لا ينشىء الرجل المنشود ـ الرجل الحر المستقل المعتمد على النفس والشاعر بالحرية الذاتية والذي يتحمل التبعة على عمله ويصيبه اللوم على فشله كما يصيبه السرور على نجاحه »[1] كما ان سيطرة فكرة الاتكال على الله قد حقرت الانسان . (بالنسبة لخالقه) وجعلت منه في نظر نفسه مخلوقاً حقيراً ضعيفاً . ان تضخيم هذه الفكرة يجعل الانسان غير صالح للقيام بعمله لان الانسان كما يقول بيندر Binder « هو ما نجعله يعتقد انه هو » واننا نجد المزارعين اتكاليين لدرجة انهم يعتمدون على الله عز وجلّ في كل أمر وينسبون اليه كل نتيجة ، وربما كان

---

(١) شهبندر ـ القضايا الاجتماعية الكبرى ـ صفحه ٤

ذلك بسبب ما يكتنف محاصيلهم من مخاطر او عوامل جوية خارجة عن نطاق فكرهم . ان عدم الاعتماد على النفس بحد ذاته امر غير مرغوب فيه ويؤدي ابداً الى الفشل ـ فكيف بالاتكال على الله تعالى ـ ونحن على يقين بانه لن يحرث ارضنا ولن يرش اشجارنا بالدواء !!

ب ـ القضاء والقدر

« الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر » . هذه هي العقائد الرئيسية في الدين الاسلامي . « وآيات القدر في الكتاب المقدس تربو على ما ورد في القرآن الكريم من نوعها » (١) .

ان فلسفة القدريين تعني في اساسها ان للانسان القدرة على تسيير اموره فهو مخير لا مسير ، ولكن هذه الفكرة تطورت فاصبحت في يد العامة تعني ان الامور « مكتوبة » او « مقدرة » وان كل شيء في يد القضاء والقدر . لقد كان لهذا التفكير أشد اثر في اعمال الافراد فقال عنه الشيخ محمد عبده : « هذا الاعتقاد (القضاء والقدر) يطبع الانفس على

(١) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية صفحة ٧٨ .

اثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء .. والذي يعتقد بان الأجل محدود ، والرزق مكفول والاشياء بيد الله يصرفها ؛ كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه واعلاء كلمة أمته أو ملته ... وهذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم (أي على الاسلام) حمل اولادهم ونسائهم ... الى ساحات القتال في اقصى العالم » (١) . واننا نفهم كيف ان الاعتقاد بالقضاء والقدر يولد في الانسان الشجاعة .. (فابن تسعة لا يموت ابن عشرة) ، (والذي له مدة لا تقتله شدة) ؛ وقد كان لهذه العقيدة ، كما يقول الشيخ محمد عبدو ، شأن في اعلاء كلمة الأمة .. وذلك يوم كانت الأمة في جهاد وحسب . اما بعد ان هدأت العاصفة وعادت امور الحياة الى مجراها الطبيعي ، فقد انعكس فعل هذا المعتقد فجاء الاستاذ كرد علي يقول : « وانت ترى ان هذه العقيدة التي كانت من محسنات الاسلام ، اصبحت للجهل الطارىء من مضعفاته » (٢) .

ان فلسفة القضاء والقدر هي موضوع للفلاسفة لا للعامة .. هي فلسفة تشحذ فكر الفلاسفة ولكنها تصمّ عقل العامة .

---

(١) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية صفحة ٧٦ ـ ٧٧ .
(٢) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية صفحة ٧٨ .

هي للعامة كالقنبلة التي توضع في يد الاطفال ـ لا يجدون فيها الا هلاكهم .

ان القضاء والقدر ، كما تفهمه العامة ، هو غاية الاستسلام والتسليم . هو حائط لا يخرقه العقل . « واذا ذكر القدر فامسكوا » ـ وكل امر يستعصي علينا فهو « قضاء وقدر » . لقد دخلت هذه الفكرة بين السبب والمسبب وقيدت الفكر فجعلت منا قوماً لا يسعون وراء (علة العلل) ولا يسيرون على مبدأ (السبب والمسبب) ذلك المبدأ الذي يفتح امام العقل البشري افاقاً واسعة من التحليل والتعليل لاستنباط الحقيقة واحقاق الحق . فعوضاً من إلباس الفكر الانساني حلة من التحرر العقلي الذي يمكنه من السير مع الزمن حيناً ، ومن تسيير الزمن حيناً آخر ، لقد خلعت فكرة القضاء والقدر على عقلنا وشاحاً من الظلام وحددت تفكيرنا بحدود التعليل الديني المقيد فحالت دون كل تقدم . وقد ذكر الدكتور سارتون (Dr. Sarton) ان احد الاسباب التي جعلت الغرب يتقدم على العرب في قيادة العلم والمدنية هو ان المفكر الاوروبي انعتق من طريقة « التفكير الديني » ، بينما نحن بقينا مسيرين بعقلية دينية يسيطر عليها القدر ويبعدها عن التفكير الحر

« وتعليل العلل » .

هذه العقلية المحدودة قد جعلت الفلاح رجعياً مستسلماً فضاع امره من يده واصبح خاضعاً للتقادير لا للعقل . حتى انه لا يتقبل التعليل الصحيح برضى . تقول له الذباب ينقل المرض وتشرح له ذلك فلا يتصور عقله ذلك ولا يقبله ـ ان المرض من الله وما يصيب الانسان فهو مكتوب له . وتقول له ان الامراض تنتقل بواسطة العدوى ـ فلا يقبل النظرية . حتى اذا ما شاهد الحقيقه بعينه ، فانه يقبلها بتردد وعلى مضض لان عقله لم يهيأ لربط السبب بالمسبب . وكل من عانى ارشاد المزارعين يجد عقليتم الرجعية التي لم تحضر للتفكير الحر عقبة في سبيل نشر المعلومات وتطبيق الاصلاحات . وقد شاهدت ممرضة اميركية عملت مدة من الزمن في اوساط المزارعين في بلاد (كوريا) ان الفلاحين هناك ، رغم انهم اشد فقراً وجهلاً من مزارعي بلادنا ، فانهم اسهل مراساً واكثر قبولا للتعليمات الصحية واندفاعاً لتطبيقها من فلاحينا ، وسبب ذلك ان اهل كوريا لا يدينون بنظرية القضاء والقدر ولا علم لهم بها وما تسيطر هذه الفكرة عليهم كما تسيطر على عقلية فلاحي بلادنا .

٣- القناعة والتقشف

« القناعة كنز لا يفنى » وقد اصبح هـذا « الكنز » مظهراً هاماً من مظاهر الدين والتقوى ونرى رجال الدين يبشرون به بكل عناية واهتمام . فالقناعة امر جوهري لحياة البشر لان الانسان « لا يستطيع ان يعمل لربين اثنين الا أن يحب احدهما ويبغض الآخر ويوقر احدهما ويهين الآخر ، فكذلك لا تستطيعون ان تعملوا لله والمال » [1] أما التقشف وهو ايضاً من مظاهر التقوى فهو الزهد بهذه الدنيا وما عليها استعداداً للتمتع بخيرات الآخرة .

ولقد كانت الدعوة للقناعة دعوة صالحة يوم كانت تقاوم الطمع - والطمع باموال الغير أمر بغيض . وكانت الدعوة للتقشف امراً مستحباً يوم كان القصد منها عدم الانهماك والافراط في ملذات الجسد التي تبعد الانسان عن عبادة الله. أما ان تصبح هذه الدعوة جزءاً بارزاً من ثقافتنا الدينية وتتحول من « مقاومة » الطمع الى « الاكتفاء » بما قسم الله لك ، فالمسألة فيها نظر ... فان فكرة الاكتفاء هذه

(١) ابن قتيبه : كتاب عيون الاخبار : الجزء الثاني . صفحة ٢٧٠

توقفنا حيث نحن وتقتل فينا كل طموح وتحول دون كل سعي نحو « المثل الاعلى » بل انها تحرمنا من تصور مثل عليا نعمل اليها . « الحاجة ام الاختراع » وهي ايضاً ام « العمل » والقناعة تحرمنا حتى من الشعور « بالحاجة » وتحرمنا من ان نعمل ونجتهد لنحصل على شيء من الرفاهية والتنعم بالحياة.

قد تكون القناعة كنزاً لا يفنى ولكنها ، على حد قول الريحاني ، كنز لا يغني البلاد ...

أما التقشف فهو ايضاً يجعل طلب الرزق والتنعم بخيراته امراً مبغوضاً . « قد وعد الله العباد برزقهم والله صادق بوعده ... ان الاهتمام بالرزق اذاً تكذيب لله . ها هنا قلب الجمود ... وموطن الضعف والخمول . . » (١)

يقول المثل العامي (فلاح مكفي سلطان مخفي) فهل الاكتفاء برغيف الذره وقليل من الزيتون والبصل فضيلة ننشدها ؟ وهل ذلك اكثر خيراً للفلاح وللبلاد من صفة عدم القناعة ومن التحفز لطلب الرزق في هذه الدنيا ؟

ان الاكتفاء يقتل فينا الطموح ويجلب الخمول . والزراعة ـ واقتصاديات البلاد ـ تتطلب اندفاعاً وطموحاً

(١) امين الريحاني : ملوك العرب : صفحة ٢٦٣

وجتهاداً وعملاً جريئاً لا تسليما وخنوعاً . والشعب المشبع بروح الاكتفاء والتسليم لا يجد في نفسه الحافز الكافي للنهوض ولن يكون عضداً لنهضة زراعية عامة .

***

لقد وضع الدين في يد اشخاص استغلوه لمآرب شخصية او شوهوه لجهلهم فاختلط الحابل بالنابل وكان ان تدخل رجال الدين بالامور الدنيوية ولم يعطوا « لقيصر ما لقيصر وما لله لله » فأصبح الدين والتعاليم الدينية ميزاناً لاعمال البشر . فالأكل واللباس والمعشر والمتاجرة كلها موكولة بالدين ، فانتشرت بين طبقات الشعب الجاهلة الخرافات والسخافات على اساس انها تعاليم دينية . فهذا شخص لا يؤمن بالطب وذلك لا يتعاطى الربا (ولكنه يدفع فائدته ذليلاً !!) هذا لا يأخذ مال الحكومة لانه « حرام » ، وذلك لا يركب سيارة او يستعمل تلفوناً لانه من صنع الشيطان ، او لا يقبل اموراً جديدة لمجرد كونها اجنبية (١) الى ما هنالك

(١) عندما ادخلت البطاطا الى اوروبا من اميركا في اوائل القرن السابع عشر حرم على الناس اكلها « لانها غير مذكورة في التوراة » !! هذا ما جرى يوم كان الدين والتفكير الديني يسيطر على عقلية الشعب الاوروبي .

من خزعبلات وسخافات تنشر باسم الدين ، والدين يتبرأ منها ، او تقبل وتنتشر لأن عقلية الفلاح الضيقة قد خضعت لهذه التعاليم الشبه دينية . ولا شيء اضر وأفعل في نفسية الشعوب من هذه التعاليم .

لقد نقم الفيلسوف الالماني « نيتشي » ، وهو معروف بعدائه للكنيسة ، على الدين المسيحي لأنه يبشر بالرحمة والشفقة ومساعدة الفقير وعيادة المرضى والى ما هنالك من أعمال انسانية .. فقال ان هكذا تعاليم تجعل من الضعف نعمة وتشجع الكسالى والخاملين وتوجد شعباً ضعيفاً خانعاً وكان حرياً بالانسان أن يحل محلها تعاليم تدعو للقوة والسيطرة ، وتهمل الضعيف وتنشط القوي فينشأ « السوبرمان » او الرجل الأمثل الذي يقود المدنية ويرتفع بالبشرية الى اعلى درجات الرقي ـ الامر الذي لا يستطيع الرجل او الشعب العادي الوصول اليه .

نيتشي ينقم على الرحمة والشفقة لأنها نضر بنفسية الشعب! ونحن ، ماذا نقول عن تعاليم الاتكالية المطلقة ، والاستسلام للقدر ، والقناعة والخرافات التي تقيد الفكر وتعمي البصيرة فتحطم الشعوب وتنزل بها الى ادنى دركات الانحطاط . . ؟

هذه التعاليم التي هي أشد فعلاً وابعد اثراً في عقلية الشعوب ومستقبل البشرية من تعاليم الرحمة والشفقة ؟!!

كانت اوروبة في العصور الوسطى في جهل مطبق ، وكانت مدنيتها في ذلك العهد في قبضة الكنيسة . وكانت الكنيسة تسيطر على اعمال الامم السياسية والروحية والفكرية وكانت تخشى ان يتحرر عقل الامم من القيود فجاءت سياستها الهدامة للقضاء على كل شعاع من النور يصل الى عقل الشعب . فاحتفظت الكنيسة لنفسها بحق التعلم ونشر العلم وحاولت جهدها بان يبقى الشعب جاهلاً مستسلماً . فجاء « لوثر » ونشر تعاليمه الثورية ضد الكنيسة وفتح اعين الناس للامور غير المشروعة التي تعمل باسم الدين فاندلعت الثورة الدينية في اوربا وتحرر الشعب من القيود الفكرية التي لو بقيت على حالها لما شاهدنا اوروبا اليوم تقود العالم فكرياً وسياسياً واقتصاديا . ان لوثر لم يغير امراً جوهرياً في الدين ولا كانت حركته حركة الحاد ، حتى ان اتباعه ما كانوا يوماً أقل تديناً وتعبداً من الآخرين . وان جل ما فعله انه حرر الشعب من سلطة الكهنوت الذين كانوا يعملون لامور دنيوية ويسيطرون على الثقافة العامة لمصلحة خاصة .

فقد حرر عقلية اتباعه من التفكير الروحاني المقيد وجعلهم ينظرون الى هذه الحياة الدنيا بمنظار الدنيا لا بمنظار الآخرة، فانفتحت عيونهم للنور الواقع ورأوا الامور كما هي فعاشوا لدنياهم كأنهم يعيشون ابداً وعملوا لآخرتهم كأنهم يموتون غداً. وان ما نحن بأشد الحاجة اليه ليس سوى هذا الانعتاق من تسلط الروحانيات على تفكيرنا وعملنا الدنيوي دون التخفيف من تعلقنا بالدين والعبادة. فليكن ما لقيصر لقيصر وما لله لله فنتحرر من القيود الدينية والتفكير الروحاني المسيطر ونتخلص من تعاليم اولئك الاشخاص الذين تبرعوا باندفاع لطبع تفكيرنا بطابع روحاني مضرّ وليس لهم مؤهلات للعمل الزمني سوى بلوغهم الشيخوخة، ومجرد حفظهم بضع آيات من الاسفار الدينية.

ان في الاديان على مختلف انواعها تعاليم حكيمة يصح ان تكون نبراساً للتقدم والرقي البشري. وكان جديراً بالانسان ان يضع هذه التعاليم او هذه الحكم في مقدمة ـ في واجهة التعليم الديني والفلسفة الدينية وان يكيّف المجتمع حسب هذه التعاليم لما فيه خير البشرية. اننا نستعين بدرس اللغة والادب والتاريخ لنخلق في النشيء الجديد عقلية واعية ونفسية وثابة

للتقدم والتطور القومي . فلماذا لا يكون الدين ، وهو أشد أثراً في نفسية الافراد من اللغة والتاريخ ، وسيلة لخلق هذه العقلية وتلك النفسية ؟ والأصح ان نضع السؤال بقالب آخر : لماذا نسمح للتعاليم او قل للثقافة الدينية العامة ان تخلق فينا عقلية رجعية خاملة مستسلمة لا تتقبل الامور الا بمقاييس الماضي ؟

الجواب هو ان الدين وما يحويه من عبر وحكم قد وضع في أيد غير حكيمة . وهذه الايدي قدمت الى الامام وابرزت بشكل يستر ما وراءه ، تعاليم وفلسفات لا تؤول الى خير البشر ، فكان مجموع التراث الديني غير ما هو مقصود بالدين .

الدين عامل فعال في تكوين المدنية وله سيطرة لا تعادلها سيطرة اخرى وخاصة في الشعوب المتأخرة ـ فليكن عاملاً فعالاً في بناء مدنية قوية ثابتة وليتقدم بجرأة وشجاعة لأصلاح القضايا الاجتماعية الراهنة ولوضع الخطط للمجتمع البشري المقبل ، لا أن يكون عاملاً فعالاً في الهدم ومحاربة التقدم والعمران . فحري بنا أن نستخدم الدين ـ وهو اعظم اداة تصل الى قلوب الفلاحين ـ ليس لخلاص الانسان من

النار والعذاب ولا حباً بالتمتع بالجنة التي تجري من تحتها الانهار ، بل كاداة لاصلاح حال الفلاح وتحويل عقليته وميوله ونزعاته لما فيه خيره في هذه الدنيا من عيش هنيء ومعشر مفيد ، ومثل عليا وتحرر وعمل وطموح ونهوض .

العقليّة الأدبيّة

اضاع العرب مجدهم وخسروا مركزهم الاول بين قادة الفكر في العالم وتفوق عليهم الغربيون « لان العالم العربي لم يقتبس او لم يكن له العقلية العلمية الاختبارية » .

سارتون

•

الزراعة علم لا فنّ . كل عمل من اعمالها يرتكز على قاعدة او نظرية علمية ويتطلب تحديد السبب وتحليل المسبب . فالاقدمون ، هنا وهناك في العالم اجمع ، تمكنوا من اكتشاف بعض الاصول الزراعية العلمية الصحيحة . وما كان هذا بناء على معارفهم في اصول علم النبات والحيوان والتربة ـ فقد كانت معارفهم ضئيلة جداً ـ بل كان اعتماداً على « عقليتهم العلمية » التي وان كانت غير « عالمة » باصول

العلوم ، فقد كانت « علمية » لدرجة ما بطريقة تفكيرها وتحليلها للأمور والملاحظات ، « علمية » بطريقة اجراء الاختبارات واستنتاج الحقائق والقواعد . وهذه العقلية «العلمية» هي شرط اساسي لكل عمل زراعي . فالقواعد الزراعية الحديثة التي هي وليدة اعمال العلماء في المختبرات والحقول ، والتي ترتكز على أسس علمية معقدة ، لا تصبح «عملية» الا عندما يطبقها المزارعون . وتطبيقها هذا او استعمالها لا يأتي عفواً دون تبصر او تفكير ، ودون تحديد او تكييف كما هي الحالة مثلاً في اختراع الراديو العجيب الذي يستطيع أبله ان يستعمله ويستفيد منه دون حذر او تفكير . بل ان تطبيق القواعد الزراعية العلمية يختلف حسب المكان والزمان والعوامل الجوية والاقتصادية. فهو يتطلب دوماً التفكير والتعليل والتحويل حسب مقتضيات الظروف المحلية . وليس بامكان المزارع الذي يعوزه التفكير العلمي الصحيح ، ان يطبق ويستفيد من هذه القواعد الحديثة . فالزراعة عقل وعلم ، تفكير وتطبيق . ونهضتنا الزراعية ترتكز في اساسها على عقلية المزارعين ولا تفتقر للمعلومات العلمية الحديثة بقدر ما هي بحاجة لعقلية علمية تفكر وتحلل ، وتعلل وتستنتج .

ولا أعني « بالعقلية العلمية » العقل الذي يعي العلوم ، بل ذلك العقل الذي يفكر بطريقة « علمية » رغم انه يجهل العلوم ويختبر بطريقة علمية ويستنتج استنتاجات علمية لا تشوبها الاوهام والخرافات ، العقل الذي يستطلع او يرغب الاستطلاع لا العقل الراكد الذي يستركن للامور الراهنة . ان تغذية العقل بالمعلومات الفنية امر سهل . فالمعلومات موجودة وهي في منال ايدينا ، وذكاء الفلاح يؤهله لاستيعابها . انما الامر المهم هو ان يكون للفلاح عقلية علمية تتساءل عن الحقيقة وتسعى وراءها ، وتقبل المعلومات الفنية وتستوعبها ثم تهضمها وتطبقها . المعرفة والمعلومات هي مسائل عرضية ، اما العقلية العلمية فهي اساس الاستعداد ؛ هي عدة النهضة الزراعية .

فما هي عقلية مزارعينا وهل تعدّهم هذه العقلية وتؤهلهم للنهوض ؟

كل من يراقب اعمال المزارعين في هذه البلاد ويدرس طريقة تفكيرهم يشاهد ضعف النزعة العلمية بالنسبة للمزارعين الاوروبيين الذين قد لا يزيدوننا علماً انما يفوقوننا استعداداً للعلم .

عقلية فلاحنا هي عقليـة مستكنة لا تسأل ولا تتساءل عن الحقيقة ، « الواقع » او « الحاصل » او « الموجود » او « المعلوم » هو الحقيقة بكاملها لا شيء تحتـه او وراءه . الشائع ان المرض الفـلاني ينتج عن المطر في ايام الربيع ... وعندما يظهر المرض فهو ناتج حتما عن المطر في ايام الربيع ـ وقع المطر في ايام الربيع او لم يقع ..! وهـذا المرض يداوى بوضع الكلس حول ساق الشجرة . هل شفيت الشجرة من المرض بواسطـة الكلس ؟ كلا ! هل اختبر الفلاح الكلس لمداواة الشجرة ؟.. كلا . هل يستعمل احد الكلس دواء لهذا المرض ؟.. كلا ! ومع ذلك فالفلاح مقتنع بان الكلس هو الدواء الشافي وليس له بديل . ألم يقرّه جميع المزارعـين في المنطقة ؟ اذاً لماذا التساؤل والشك ؟ لماذا الاختبار والتجربة ؟ (من جرّب المجرّب كان عقله مخرّب) !! . « العلم » يستلزم الشك والاستقراء والاختبار والتجربة للوصول الى الحقيقـة . « والعرف » يستلزم الاستكنان لمـا هو « معروف » خوفاً من اظهار حقيقة تتنافى « والعرف » العام . وعقلية الفلاح تستكن « للعرف » ... (نحساً تعرفه ولا جيـداً تتعرف به) فلا هي تختبر ولا تجرب ولا تستطلع . وهذه العقلية غير العلمية ـ هذا

الافتقار للتفكير العلمي الذي اعتبره من اهم اسباب تأخرنا الزراعي هو تراث الاجيال الماضية ونتيجة عوامل متعددة مختلفة . فلنحلل عقليتنا ولندرس ميولنا الشخصية والقومية ولنبحث العوامل التي ادت الى تلك العقلية من دون تحيز ومن دون تحفز للدفاع عن كل نقص فينا مهما كان امره ، فنصل عندئذ الى الحقيقة المجردة ونعترف بالامر الواقع فنسعى لاصلاحه .

●

يسيطر على عقل الجماعة عندنا ذلك التراث العربي الذي يشمل العرب قاطبة من مشرقهم الى مغربهم . ومن خواص تراث الفكر العربي الاتجاه نحو الابهام والخيال ، نحو العقيدة المطلقة والتفكير العاطفي ـ ولهذا الاتجاه الفكري تأثير قوي في تفكيرنا واعمالنا اليومية .

فالعقلية الخيالية تتمشى والعاطفة وتتجاهل او تهمل الحقيقة. والتفكير العاطفي يبعدنا عن التفكير العلمي، عن الاستقراء ويزجنا في عالم العقائد والخرافات . ولما كان لا بد للعقل البشري من ان يعمل وينتج ، فقد تحول الانتاج الفكري فينا عن طريق العلم وسار بنا الى صاحب العرش والصولجان في حياة العرب منذ كانوا ... الى صاحب المقام الرفيع ... الأدب !!

فالعقلية الأدبية قد سيطرت علينا وحلت محل العقلية العلمية ورغم انتاجنا العلمي الغابر فقد بقي التفكير الادبي الصفة البارزة فينا . لقد وصف ابن خلدون العرب بقوله : « وهم لا يزالون موسومين بين الامم بالبيان في الكلام والفصاحة في النطق والذلاقة في اللسان ، والبيان سمتهم بين الامم منذ كانوا » (١) . وعدد الجاحظ مزايا كل أمة في عصره فقال عن العرب : « ... ووجهوا قواهم الى قول الشعر ، و بلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ... » (٢)

فاللغة والادب احتلا الجزء الاكبر من تفكيرنا وانتاجنا . أما العلم فقد احتل المركز الثاني او قل الثالث او الرابع ، وما انتجه العرب على عظم قيمته واهميته فهو ثانوي بالنسبة للأدب . وقد لخص ذلك الدكتور طه حسين بقوله : « أعطتها (اي الامة العربية في اول نشوئها الى الامم الاجنبية) دينا ولغة وأدباً ، واخذت منها علماً وفلسفة وفناً وسياسة وادارة وتدبيراً » (٣) . فعلم اللغة ، والشعر وفلسفة

---

(١) احمد امين ـ فجر الاسلام ، ص ٣٩

(٢) احمد امين ـ ضحى الاسلام . الجزء الثاني ص ٦

(٣) طه حسين عدد الهلال الخاص « العرب والاسلام » سنة ص ٤٦

الدين طبعت تفكيرنا بطابع ادبي خاص وجعلت العلوم في المقام الثاني واضعفت فينا الميل العلمي واصبحنا شعباً يقدر الأدب ويقدس الشعر وهو يلهو بالالفاظ والتعابير عن البحث في العلوم والطبيعة . حتى ان ما كان من غريزة علمية فينا قد تحول عن العلم نحو اللغة والادب فجعلنا من اللغة ـ وهي اداة للتعبير لا غير ـ علماً معقد القواعد . لقد سمعنا بمن « مات وفي نفسه حسرة من حتى » ولم نسمع باحد مات وفي نفسه أي حسرة من اية مشكلة علمية خارجة عن الادب واللغة !! سوى اللهم ... استخراج الذهب من الرصاص !!

لقد رأينا العرب يبدعون في تحليل النحو وجمع شواذه ويؤلفون الكتب ويقضون العمر في البحث عن «أن واخواتها» وأكل السمكة حتى رأسها ورأسها . ونعجب بعالم انفق عشرين سنة في درس اصل التاء المربوطة ولم نر من سهر الليالي لدرس مسألة علمية او استنباط قانون طبيعي .

ويبدو لي ان مظاهر الادب شائعة في جميع اوساطنا في العصر الحاضر . فجميع الطبقات ، العامة والخاصة ، تقدّر الادب وتزهو به ، بقدر ما تبتعد عن العلوم . هي تسبح في عالم الخيال وتبتعد عن عالم الطبيعة . من هم مشاهير العرب

في المئة سنة الاخيرة ؟ اذا استثنيت رجال السياسة ، والسياسة تعلو بشهرة الرجل ـ وقد يكون اساسها صنعة الكلام ـ ترى ان ٩٥ بالمئة على الاقل من مشاهير قومنا هم الكتبة والشعراء. قال غليوم : « والعلم الصحيح بقواعد نحوها (قواعد اللغة العربية) في الاوساط المثقفة آية الرجل المهذب » (١) اما العلماء ، الذين يقضون وقتهم في العمل والتنقيب العلمي فهم على قلتهم نكرة في البلاد ولا ينالون تقديراً . ألف احد الاساتذة في بيروت عدة كتب علمية هي محجة طلاب العلم ، فلم ينل من طبقات الشعب حتى الخاصة منها ، تقديراً ولا تمريظاً . اما من نظم قصيدة وطنية او غزلية فيسجل اسمه في سجل الخالدين ومن روى قصة خيالية فيشار اليه بالبنان (٢).

ما هو عدد المجلات العلمية العربية ؟ وهل تحصى المجلات

---

(1) Alfred Guillaume — The Legacy of Islam.

(٢) « زار احدهم ، مع صديق له ، الدكتور فانديك ، فقدم صديقه بقوله : العالم العلامة ، الاستاذ الكبير فلان . فحنا الدكتور رأسه احتراماً ، ثم سأل عن اختصاص حضرة الاستاذ : أهو الفلسفة أم اللاهوت ؟ فقال : ... لا : الطبيعيات ام الرياضيات ؟ علم الفلك ؟ علم طبقات الارض ؟ علم ... لا يا دكتور ، هو استاذ في اللغة ، في الصرف والنحو والمعاني والبيان ... فابتسم الدكتور فانديك وقال : يعني ان حضرة العالم يستطيع ان يقرأ ويكتب بدون غلط !... »
(رشدي معلوف ـ البرلمان الامثل ص ٦٣)

الادبية ؟! اننا بطبيعتنا ، كما قال الدكتور زريق « ننصب على المواضيع الأدبية ونبادر الى معالجتها وتحبير المقالات الطويلة فيها ،.. ومن جهة اخرى لا نمس الابحاث العلمية الا بمقدار ضئيل ، ونهملها اهمالا يدعو الى الاسف ويبعث على القلق »(١) اننا نقيم سنوياً عدداً كبيراً من الحفلات الخطابية وجميع هذه الحفلات تكرس لابحاث ادبية ، شعرية او تاريخية . فكأن « نهاية الأرب » عند العرب هي « في فنون الأدب » . أما التفكير العلمي المجرد فمعدوم فينا ـ الا ، اللهم ـ ما يسعى الى ادخاله حديثاً بعض البحاثين وهذا جله في مواضيع النقد الادبي . حتى أن العلماء او العلميين فينا كالاطباء والمهندسين، فهم ينتمون الى العلم عن طريق المسلك والصنعة لا من أجل العلم المجرد . وانك لتجدهم في ارقى المجتمعات العلمية البحتة يستسلمون لسلطان الأدب ويسترسلون فيه فتجود قرائحهم بابحاث « ادبية » لا تجد لها مقابلاً في المجتمعات العلمية الغربية (٢)

---

(١) الدكتور قسطنطين زريق ـ الوعي القومي ص ١٦٠

(٢) انعقد المؤتمر الطبي العربي السادس في لبنان في آب ١٩٤٤ لبحث القضايا الطبية والمداولة بما كشف عنه العلم والاختبار . فما كان لهذا المجتمع العلمي العالي ان ينعتق من قيود النزعة الشعرية المتأصلة

يحكى أن احدى الجمعيات خصصت جائزة مالية لمن يؤلف خير كتاب عن موضوع (الفيل) فتقدم لهذه (المسابقة)

فينا فوقف احد المؤتمرين لا ليلقي كلمة « تناسب المقام » بل ليسمع الاطباء بين موجات من التصفيق والاستحسان ... قصيدة مؤلفة من ٨٨ بيتاً مطلعها :

القيت للغيد الملاح سلاحي ورجعت اغسل بالدموع جراحي

إخس على البناسيلين !! الدموع هي احدث علاج للجروح !!

ثم يتدرج المحاضر من اخصائي بالجراحة الى اخصائي بالعيون فيقول :

الفلسفات وما حوت في نظرة من لحظ ساجية العيون رداح
تغري الهوى وتصده لمحانها فيحار بين تمنع وسماح
والنظرة البهماء افتك بالفتى من كل واضحة المرام وقاح

يا لك من سلطان ايها الادب !! ويا لك من قوة !!

عندما هاجم الاسبانيون بلاد الاندلس أبلغ الخبر الى السلطان عبدالله الصغير فرعد وأزبد وقال : « لأهجينهم بقصيدة رنانة !! »

ودعي احد الاطباء لالقاء محاضرة في حفلة متخرجي الجامعة الاميركية في بيروت . وأي جمع يكون أرقى من خريجي جامعة وأي حفل يستوعب العلم اكثر منهم ؟ ثم أية مهنة أعرق واعمق علماً من الطب ؟ اختار الطبيب الفيتامين B و A موضوعاً لحديثه . قلنا اما انه سيتكلم عن احدث ما وصل اليه العلم في هذا الموضوع ، او انه سيبحث الموضوع من ناحية عمومية ليعرف من ليس لهم المام بالعلوم الطبية بطرائف هذه المواد . لكن حضرة الطبيب العالم لم يأخذ بهذه الناحية ولا تلك بل انه استسلم لربة الشعر وسلطان الادب كعادة كل عربي فالقى محاضرة « قيمة » استحسنها المستمعون وطربوا لها . وبعد مقدمة قصيرة حول تاريخ اكتشاف الفيتامينات واهميتها وصفات الفيتامين A الذي يسبب نقصه من الغذاء مرضاً في العيون قال : « وفي لغتنا

اشخاص من شعوب مختلفة والفوا كتباً حسب ما توحيه عقليتهم وثقافتهم . فجاء الافرنسي بكتاب عن « الحب عند القبلة »

وادبنا شواهد جمة على ما للفيتامين A من التأثير لا في ابناء هـذا الجيل فقط بل في الاجيال الغابرة ايضاً . فمن منا لا يروي الاشعار :

ان العيون التي في طرفهـا حور قتلننا ثم لم يحيين قتـلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله انسانا

وقول شاعر عصري :

ليت الذي خلق العيون السودا خلق القلوب الخافقات حديدا

ثم ينتقل الى الفيتامين D وهو يقوي العظام والاسنان ومنه في الطبيعة معين لا ينضب مما جعل لاهل الريف اجساماً خيراً من اجسام اهل المدن . قال ابو الطيب المتنبي :

« من الجآذر في زي الاعاريب حمر الحلى والمطـايا والجلابيب
ما اوجه الحضر المستحسنات بها كاوجـه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرئة وفي البداوة حسن غير مجلوب »

ويروي عدداً وفيراً من ابيات المتنبي . ثم ينتقل الى اشعار البحتري فيرويها بكل سخاء وينتهي بقول احدهم :

استمطرت نرجساً من لؤلؤ وسقت وروداً وعضت على العناب بالبرد

« وأمثال هذه الشواهد عديدة وكلها آيات بينات على ما لأشعة

الشمس والهواء الطلق النقي من التأثير في بناء الاجسام وجمالها » . نعم انا نثبت الحقائق العلمية بالشواهد الشعرية !!

صدر اخيراً مجلد ضخم عن زراعة الزيتون ، وقال المؤلف في نشرة الاعلان عن هذا الكتاب :

« ويشمل (الكتاب) تاريخ هذه الشجرة المباركة باسلوب يجمع بين العلم والادب ... » ثم افتتح الكتاب بمقطوعات شعرية قديمة وحديثة الامر الذي لا نجد له مثيلا في كتاب علمي عند قوم آخرين .

وتبعه الالماني بكتاب ضوموعه « حياة وطبائع الفيل » وكان موضوع كتاب الاميركي قيمة « الفيل في الاسواق التجارية » أما العربي فلو قدر له ان يدخل هذه « المسابقة » لنظم ديواناً من الشعر عن الفيل ! !

« أيصح ان ننصرف هذا الانصراف الجارف نحو الادب ، ... ونحن لا نزال نجهل مبادىء التفكير العلمي واوليات العلوم الطبيعية والاجتماعية التي تقوم عليها المدنية الحديثة ؟ » (١)

لقد طغى الأدب والشعر على تفكير العامة والخاصة واصبحنا عبيداً لناحية واحدة من التفكير العقلي . اننا نطرب بالشعر والادب كما يبتهج العاشق بعشيقته التي لا يرى في الكون سواها . ايهما احب الينا مطالعة :

« اول الربيع ـ ربيع السنة ـ برعم يشعر بقلق الطيب بين اضالعه ونسمة تنعش الخمائل من اغماء الشتاء ، وخيوط من النور يكمن فيها اللون ، وخفق اجنحة السنونو يبشر بالتهاليل ، وبالاعشاش تبنى من العشب الطريء ، ومن ريش الطائرة الانثى تنتقره من صدرها لتفرش سرير الصغار،

(١) قسطنطين زريق : مجلة الابحاث ـ العدد الاول السنة الاول صفحة ٩٠

ومن قطرات الندى ونفحات الازاهر ، على هينمات الخرير والخفيف والاغاريد وعلى بركات الله... » (١)

ايها اقرب الى عقليتنا هذه القطعة الادبية ام وصف ما يكنه الربيع او ما يرويه من عجائب علمية ؟ كيف يأتي الربيع وكيف يزول ولماذا تنبعث الأزهار وكيف تضمحل وما هي علاقة نفحاتنا بالفراشات الجميلة ؟ لماذا يزداد عدد الطيور ولماذا تغرد ثم اين تذهب بعد ذلك ؟

كلها امور تشهد بجمال الطبيعة فلماذا نجد الجمال في مقطوعة شعرية او نثرية ولا نجده في وصف عاديات الحياة من امور طبيعية ترافقنا كل يوم وكل سنة ؟

ان اجمل الادب وارقى الشعر ما وضعه ونظمه خالق الكون في موسوعته . فما بالنا نعمى عن ادب الطبيعة ونتلهف لسماع أدب اللغة ؟

للأدب جاذبية خاصة يصعب علينا مقاومتها . ومع أن الادب يجلب لصاحبه الفقر ، ورغم اننا في وسط العصر المادي ، فاننا لا نزال نندفع نحو الأدب كما تندفع الفراشة نحو النور ، فهي تقبل وتكر على المصباح اولا وثانياً

(١) سليم حيدر « الاديب » ايلول ١٩٤٤ صفحة ٥١

وثالثاً حتى يسعدها الحظ فتصل الى منبع النور ـ الى النار ـ فتموت وفي نفسها لذة الانتصار ، لذة الانتحار . هي تنتحر على مذبح النور ونحن ... اننا ننتحر افراداً وامة ، على مذبح الأدب الفتان !

اني أحمل على سيطرة الأدب والشعر وانقم عليها ومع ذلك تراني ككل عربي اقف عفواً لانشد واردد بضعة أبيات من الشعر العذب للروح ، مسحوراً بجمالها ثملاً بموسيقاها !! أنا ناقم على الشعر ولكن « لساني عليه وقلبي معه ». أني اتلذذ بتلاوته ـ ولكن :

كما لذّ على الكره كلام الله للمشرك

أنا مسحور به لا انفك عنه . انه يفعل بنفسي فعل الكحول بالجسد ، واني ارى ضرر الكحول بالجسد ، فأقول : انه مهلك فأمتنع عنه ولا تدمنه . وارى ايضاً سحر الأدب واثره في عقلية الافراد والشعوب فأقول : لا تدمنوه !: ربما ترون في غيره من الانتاج العقلي ليس سحراً فحسب ، بل سحراً وفائدة . . .

ما شع نور الفكر الاغريقي على العالم من مصباح الشعر بل انه لم يشع حتى اطفىء مصباح الشعر والخيال

واشعل مكانه مصباح الفكر الحر ، الفكر العلمي « الفلسفي » .

تمكن اليونانيون من محاربة تيار الشعر فقضوا عليه ونشأوا وتقدموا ووضعوا اساس الفكر العالمي . أما العرب فما زالوا تحت تأثير العقلية الأدبية وقد اضاعوا مجدهم وخسروا مركزهم الاول بين قادة الفكر في العالم وتفوق عليهم الغربيون « لان العالم العربي لم يقتبس او لم يكن له العقلية العلمية الاختبارية » . هذا ما قاله الدكتور سارتون وهو خير من درس وكتب عن تاريخ العلوم . وهذا ما جره هذا المعبود على الأمة العربية ـ فهل تحتمت علينا عبادته حتى النهاية ؟

ولو كانت هذه السيطرة للشعر والأدب محصورة بطبقة خاصة من افراد الأمة لهان الأمر . ولكن الأدب والشعر ـ والتفكير العاطفي الخيالي الذي يرافقهما ـ قد طغيا على تفكير الخاصة والعامة . فالفلاحون على جهلهم واميتهم يستعذبون الادب والشعر بشكل لا نراه عند الامم الغربية ولهم ايضاً شعر عامي خاص. فشعراء الزجل وحفلات الزجل هم خير ما يجتمع حوله المزارعون. ثم انك لتجد اول ما يبتهج له قلب الوالد لولده يوم يعود من المدرسة هي بضعة ابيات من الشعر

ينشدها الطفل امام مشائخ القرية ولا يفهم منها كلمة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا ابا لك يسأم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

بهذه الأبيات نحشو عقل الصغار .

والرجل « المتكلم » او الذي يحسن صنعة الكلام هو عند الفلاحين مثال الرجل المثقف العالم .

وأنك لترانا « نزيد الطين بلة » فنعزز هذه الميزة في مدارسنا الابتدائية فنبدأ بتدريس « الادب » في الصفوف الاولى ـ اطفال يستظهرون قطعاً من الشعر ... وقد يكون جاهلياً ... ومقاطع من النثر ، وقد لا يزيد عمرهم عن العشر سنوات ..

لا تجد في حفلاتنا المدرسية سوى مباريات التلاميذ في القاء مقطوعات شعرية ونثرية . وفي دروس الانشاء لا يطلب منهم الا مواضيع ادبية كوصف الربيع وجمال الطبيعة . ولكنك قلما تجد في هذه المدارس « مسابقات » في الأشغال اليدوية ، او معارض بدلا من حفلات ومختبرات بدلا من

الدواوين . اننا نلقن النشء الجديد الشعر والادب ونقوي فيه العاطفة ، ونضع في الدرجة الثانية الصناعات اليدوية والتصوير ودروس الطبيعة والعلوم التي تنمي العقل وتشحذ الفكر وترقي حاسة الفن والصناعة وتقوي مزية التفكير العلمي .

أجل ان الادب غذاء الروح والفكر ، ولكن « ليس بالخبز وحده يحيا ابن الانسان ! » ولا بالادب وحده يتمكن العرب من خوض معركة الحياة ... ولا يجوز ان يحتل الادب ذلك القسم الاكبر من حياتنا الفكرية وان يكون « الكل بالكل » في تفكيرنا وانتاجنا واعمالنا ـ وكما يقول الفرنسيون : لا يمكننا ان نعيش على الحب والماء الزلال . ولو كان ادبنا واسطة للحصول على المعرفة لكان له فائدة لا تنكر ، ولكنه أدب لغة وخيال وجمال لا ادب معرفة وعلم وحقيقة . ومن نقائص ادبنا الفاضحة ان ادباءنا الذين يملأون الصحف والمجلات بمقالاتهم الطويلة قلما يطرقون الا المواضيع التقليدية Classique وليس لهم أدب توجيهي يقصد به اصلاح الحالة الاجتماعية او الاقتصادية ـ فاذا ما تعدوا الادب الصرف من نظم ونقد فانهم يطرقون باب الوطنية

ويقفون ... كأن الابواب قد سدت في وجوههم (١) .

ان عقليتنا وثقافتنا هما عقلية وثقافة ما يسميه رشدي المعلوف (٢) « العلماء الاميون » وهم علماء « يعرفون اللغة » ويجهلون « المعرفة » .

لقد امتازت بعض الشعوب على غيرها بتفكيرها العاطفي . ولكن الشعوب التي تفوقت في الميدان الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي في هذا العصر ، هي الشعوب التي تتمتع بالعقلية العلمية . نحن اليوم في عصر العلم وعصر المادة وكل ما نعمله يرتكز على العلم والمعرفة لا على العاطفة والغريزة . فان كنا بطبيعتنا عاطفيين نميل نحو الادب والشعر فعلينا ان ندرك ذلك وان نستطلع نتائج هذه الطبيعة في هذا العصر فنستدرك الامر ونحول دونه بان نضع لنفسنا برنامجاً توجيهياً يضعف فينا العاطفة ويقوي العقل ويخلق فينا عقلية علمية . والعقلية العلمية التي تربط السبب بالمسبب وتحكم العقل في جميع الامور ، هي العقلية التي ستحررنا من قيود الماضي ، ومن التفكير التقليدي العاطفي ومن الخرافات والاوهام ، والتي ستفتح امامنا مجالا واسعاً للنشوء والتطور .

(١) راجع « وظيفة الادب في الاصلاح الاجتماعي » الهلال مارس ١٩٣٩

(٢) رشدي المعلوف ـ البرلمان الامثل صفحة ٦٣ .

الدَّولة والحكم

« أن نظم الحكومة السياسية والاجتماعية هى اشد اثراً في الزراعة من العوامل الاقليمية ومن طرق العناية بالارض ، وان الزراعة لتصل الى أوج مجدها واعلى درجات كمالها في البلدان التي تصلح بها حكومتها لا البلدان التي تجود بها طبيعتها » .

كوتراد

•

اذا تعرضنا لموضوع الدولة ونظام الحكم في هذا الفصل فأننا لا نتعرض له من ناحيته السياسية . فالسياسة ما دخلت في امر الا وأفسدته ـ وكنا يعلم أن اهتمام مختلف طبقات الشعب بامور السياسة المحلية والخارجية هو صفة بارزة فينا وان هذا التعلق بالامور السياسية يلهينا عن امور جوهرية

واحياناً يجرنا الى ظروف او مآزق نحن - وعلى الاخص طبقة المزارعين - بغنى عنها .

انما هدفنا من هذا البحث هو النظر في الدولة كعامل اجتماعي ودرس نظام الحكم وتأثيره في عقلية الشعب . وما قصدنا من اي انتقاد يصدر في هذا الصدد ، توجيه اللوم لأية فئة من الحكام ولا وضع المسؤولية على نظام حكم معين ، انما الغاية من نقد الدولة هي توجيه الفكر نحو ما للدولة من أثر في نفسية الشعب وتدارك الاعمال التي تسيء الى نفسية هذا الشعب . فنظام الحكم و « عقلية » الدولة الحاكمة لا يؤثران فقط في تقدم الزراعة كناحية فنية واقتصادية بل انهما يؤثران في عقلية المزارعين الذين يعيشون في ظل ذلك الحكم . وهذا التأثير في العقلية والنفسية يصبح مع الزمن تراثاً اجتماعياً له فعله الاكيد في اعداد المزارعين للنهوض والتقدم او بالعكس ، في تقاعسهم عن السير مع الزمن ومماشاة المدنية والعلم .

وبديهي أن هناك « سوء تفاهم » بين الدولة والشعب او قل عدم ادراك حقيقة المهمة الموكولة للحكومة . فلا الشعب يدرك واجبات الحكومة نحوه (وواجباته نحوها) ولا الدولة

ادركت واجباتها نحو الشعب . فالفلاح يطلب من الحكومة كل شيء وهي بنظره لا تعيره أي اهتمام .

يتكل الفلاح على اثنين هما :ـ الله والدولة . والله هو السميع المجيب اما الدولة فهي السميعة التي لا تجيب مما لا شك فيه ان الفلاح يتطلب من الحكومة اعمالا لا تدخل ضمن نطاقها فيرغب اليها ان ترش اشجاره وتكافح الحشرات وتشفي حيواناته بينما هو يحمل وينام . وفي الوقت نفسه هناك امور تخرج عن نطاق المزارع الفرد وتقع ضمن نطاق اعمال الدولة وهذه الامور العليا، فنية كانت ام اقتصادية ام اجتماعية، لها اعمق تأثير في الاقتصاديات الزراعية وفي حالة الفلاح .

لقد قيل « كما تكونون يولى عليكم » ويصح أن يقال « كما يولى عليكم تكونون » فالشعب هو حاصل عدة عوامل تضافرت وتفاعلت فكونته كما هو . والعامل الحكومي هو احد تلك العوامل الرئيسية التي حددت سير الشعب وتقدمه . فلننظر اذاً كيف ان تولي الحكم من حكومات مختلفة قد اثر في تقدمنا الزراعي وطبع مجتمعنا الريفي بطابع خاص ادى الى تأخر الزراعة وركود الريف .

قال الدكتور كونراد ، (١) « أن نظم الحكومة السياسية

(1) Boyle - Agr. Economics p. 505,

والاجتماعية هي اشد اثراً في الزراعة من العوامل الاقليمية ومن طرق العناية بالارض ، وان الزراعة لتصل الى اوج مجدها واعلى درجات كمالها في البلدان التي تصلح بها حكومتها لا البلدان التي تجود بها طبيعتها» . لقد جادت الطبيعة عندنا فماذا كان نصيب الزراعة من الحكومات المتتابعة على هذه البـــلاد ؟

تعاقبت على هذه البقعة من الارض حكومات مختلفة خلال الالفي سنة الماضية كان بعضها وطنياً وبعضها اجنبياً . وقد زالت عنا هذه الحكومات وزال سلطانها ولم يزل اثرها باقياً في نفسية الشعب واجتماعياته واقتصادياته . فالجهل السائد والفقر المنتشر في انحاء البلاد ، وعدم التناسق في المبدأ والمشرب بين الرعية والحكام هي بقايا آثار الحكام الاقدمين. وقد اصبحت هذه الآثار جزءاً من تراثنا الاجتماعي . « سنن الشرق وتقاليده السياسية الفاسدة انما هي الآفة التي كانت وما برحت ناخرة في عظمه . فلم ينفك الاستبداد منذ العصور الاولى والحقب القدمى اغلب صفة ، وابرز صورة في آفاق الحكومات المشرقية ـ اعني به استبداد الحاكم الفرد ، والسلطان المطلق ، مسترقاً للرعية ، متصرفاً في شؤون الناس

ومتاعهم وحطامهم وجميع ما ملكت ايديهم ، وممتهناً لشرف نفوسهم وكرامتهم وجاسوساً على حياتهم حركاتها وسكناتها في مغداهم ومراحهم كما شاء وبغى (١) ».

ومن شاء اليوم ان يشاهد آثار استبداد الحكم الغابر فما عليه سوى درس ما وصل اليه هذا الشعب الذي حمل مشعل الحضارة ردحاً من الزمن . ان ما نعانيه اليوم ، بعد كبوتنا ، من مشاكل اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية وما يثقل كاهلنا من جهل وفقر ومرض ، وما يعوقنا عن النهوض والسير مع الامم المتمدنة ، انما هو من اهوال ذلك الحكم . وماذا ترتجي من شعب ذاق ، وتحمل ، مرّ الاستبداد والاستعباد وتعرض للاهمال خلال هذه السنين الطوال ، ومن نفسية شعب تفكك مع الزمن تحت نير الحكام المهملين الظالمين ؟

انها « سنن الشرق وتقاليده السياسية التي حالت دون انتظام حكوماته واستقرار دوله فاقصته عن كل سبيل من من سبل الارتقاء والعمران » (٢) وهدمت كيانه الاجتماعي. ان ظلم الحكام على ممرّ الازمان قد اضعف في افراد الامة

(١) حاضر العالم الاسلامي ، المجلد الثاني صفحة ٥٦ .
(٢) حاضر العالم الاسلامي ـ المجلد الثاني صفحة ٤٩

حيويتهم وقضى على عزتهم وشخصيتهم . والتحكم بالشعب خلال اجيال عديدة وما رافق ذلك من اضطهاد واسترقاق للنفوس اوجد في شعبنا مقدرة على تحمل الضيم والظلم قد لا نجدها في شعب آخر . فسكان الريف يستسلمون للحاكم الظالم ويشكون امرهم الى الله ولا تقوم لهم قائمة الا في حالات عصبية خاصة او ظروف اجتماعية معينة . اما في الحالات العادية فأنهم يتحملون اشد انواع الظلم كأنه أمر طبيعي ويستكينون له ولا حول ولا قوة الا بالله .

وبالاضافة الى ذلك فقد كان هدف هذه الدول المحافظة على كيانها كدولة حاكمة وصيانة نفسها من عبث الشعب وتمرده . وكان عمل الدولة يقتصر على خدمة نفسها والترفيه عن الحكام دون اعتبار لمصالح الشعب او اهتمام بالترفيه عنه . وما قام في البلاد على ممر تلك العصور حكومة تشعر بواجب الخدمة والاصلاح كحكومة « من الشعب والى الشعب » على حد تعبير الرئيس لنكولن . والشعب لم يشعر بوجود حكومة نذرت عملها لخدمته ومصلحته . والفلاح ما كان ليشعر بوجود حكومة لولا احتكاكه «بابن الحكومة» أي ذلك الدركي الذي يجيء الى القرية للقيام باعمال صيانة

الدولة وخدمة الدولة من جمع الضرائب والتجنيد وتعقب المتمردين . وكل هذه الاعمال تتطلب القوة والعنف والاضطهاد والدركي بنظر الفلاحين هو الحكومة ووجهه يمثل وجه الدولة . والفلاحون يخشونه ويخضعون له ويقدمون له ، مكرهين ، اعظم تقدير وتكريم .

يحكى ان احد الفلاحين استلطف الخديوي عباس يوم جاء بزيارة للقرية فقال له : « ربنا يخليك وتبقى مأمور عندنا » . ان المأمور ، او بالاحرى « الآمر » هو كل ما يراه الفلاح في حكومته ، هو صاحب السلطة وعلى كل شيء قدير . هو يضرب وهو يجمع الضرائب ، هو « يلقي القبض » او « يقبض ... » ، هو يأبى الكشك ويلتهم الدجاج ... هو الكل بالكل . والفلاح ما شاهد قط ممثل الحكومة الذي جاء يرشد اهل القرية لما فيه خيرهم وصلاحهم . ولا نظر لمندوب الحكومة كمأمور جاء للقرية لخدمة اهلها ولمنفعتهم . فان جاء مهندس زراعي الى القرية فهو « المفتش » الزراعي لا « المرشد الزراعي » وقد جاء يفتش عن زراعة الحشيش او عن مخالفة احراج ، او جاء يقدّر المحاصيل توطئة لجمع الضرائب. وان جاء ممثل الصحة الى القرية فهو « المفتش » الصحي جاء

ليفتش عن من اخل بالنظام « ليضبطه بمخالفة » ، ويغرمه ، لا ليعلمه ويشفيه من امراضه .

والذي زاد الطين بلة كون الحكام من غير طبقة المزارعين . فيوماً كان الشعب تحت حكم اجنبي ويوماً كان تحت حكم طبقة خاصة من بني قومه . وفي كلتا الحالتين كان ينظر الى الفلاح كأنه « شخص آخر » فاختلفت مصلحة الحاكم عن مصلحة المحكوم ونشأ التباين في العمل والهدف . قال الاب عيروت عن الحالة في مصر : « لقد نظرت الحكومة الى الفلاح كمنتج ومكلف وتجاهلته كانسان واهملته كمواطن » (١) وعدم الشعور بالفلاح كمواطن هو ما جعل الدولة تستغله وتستعبده دون ان تقدم له الخدمات المترتبة عليها . كما ان النظر اليه كمنتج فحسب كان احد الاسباب لعدم موافقة سياسة الدولة لمصلحة الفلاح . ثم ان الاختلاف في العقلية والمجتمع حال دون تفهم الحكام لعقلية المزارع وجعلهم يسيئون اليه ولا يشعرون بشعوره . وقد عبر عن هذا الوضع السيء احسن تعبير الفيلسوف ابو العلاء المعري يوم قال :

(1) H. Ayrout : Mœurs et Coutumes du Fellah p. 57

ملّ المقام فكم اعاشر أمة امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وقد ترك كل ذلك التراث الماضي اثراً سيئاً في:

١ . نفسية الموظفين

٢ . نفسية المزارعين .

١ ـ نفسية الموظفين

ان نظرة الناس اجمالا نحو الزراعة والمزارعين هي نظرة احتقار وازدراء . فالزراعة هي صنعة حقيرة والمزارع هو رجل فقير وابن القرية هو رجل جاهل . وقد تعدت هذه الفكرة رجل الشارع الى موظف الدولة ، فجاء هذا الذي بيده امر الفلاحين ينظر اليهم كأنه ليس منهم او لهم فيعاملهم معاملة من ليس له فيهم اي أهتمام او لهم عليه اي واجبات .

ثم أن رسوخ فكرة الموظف كأنه الآمر والمسيطر على رقاب العباد ادى الى عدم تشبع الموظف بروح الخدمة العامة والتضحية في سبيل خدمة الجمهور . بل أن روح الآمر المسيطر جعلته يضع مصلحته الخاصة فوق المصلحة العامة وابعدته عن تصور نفسه « خادماً للامة » Civil Servant كما

يسمي الانكليز موظفي الدولة . فعقلية الموظف هذه هي التي تحمله على الظهور بمظهر الرجل المتكبر المتعجرف والتي تجعله يهمل ، او قل لا يدرك ، واجباته الحقيقية نحو الشعب. فقلة الاندفاع للعمل ، واهمال مصالح البشر ، والنقص في المبادرة (Initiative) ، كلها نتيجة عدم تعرف او اعتراف الموظف بواجباته وهي احدى اسباب سوء الادارة الحكومية.

٢ـ نفسية المزارعين

اما تأثير هذا النوع من الحكم في نفسية المزارعين فهو ظاهر في عدم طمأنينة الفلاح الى الدولة . فهو ينظر الى الدولة كما ينظر السارق الى الدركي او كما ينظر التلميذ الصغير الى المعلم القاسي . والدولة هي جهاز مفروض عليه يتمنى الخلاص منه ، فالفلاح يخشى الدولة ، ويتهرب منها او يقاومها عندما تسنح له الفرصة . وبعد أن اعطي حرية الرأى والكلام اصبح لا يلذّ له شيء كأنتقاد الدولة وكيل اللوم لها وتحميلها مسؤولية كل شيء سيء في بلده . واذا كانت الامثال العامة تعبر عن رأي الشعب ، وهي فعلاً كذلك ، فأن الامثال القديمة المعروفة تعطينا فكرة عما

يكنه هذا الشعب نحو الدولة وموظفيها . يقولون : « ابن الحكومة ملحه على ذيله ، ان قعد حفظه وان قام نفضه » و « الله يعمي عنك عيون الحكام والظلام واولاد الحرام » كل هذا يدل على ان الفلاح يرى الحكومة كشخصية خارجة عن كيانه . فلا يوجد صلة معنوية تربطه بها ولا هو يشعر انها حقاً وجدت لخدمته ومنفعته . وازل ما يتبادر الى ذهنه وتفكيره هو مقاومتها ما امكن . فالقوانين لا تطبق الا بالقوة، وارشادات الدولة لا ينظر اليها بعين الاعتبار والاحترام . والنزاع الروحي قائم دوماً بين الشعب والدولة .

أن عدم التجانس هذا بين الشعب والحكومة هو اسوأ شيء يصيب الأمة . انه تراث اجيال عديدة وهو متأصل فينا وله اسوأ اثر في حياتنا ويشكل قضية اجتماعية هامة . ولا يمكن للدولة ان تقوم بواجبها الكامل ما دام الشعب لا يتعاون معها بملء حريته ولا يثق بها كل الثقة .

تقع على عاتق الدولة واجبات هامة ومسؤوليات كبرى وهي عامل هام في النهضة الزراعية الريفية ، فكل شيء يعرقل اعمالها ويحد من فاعليتها يكون شديد الضرر بمصالح الأمة ويؤخر تقدمها . لم تعد الدولة اداة للمحافظة على

الأمن والعدالة فحسب بل اصبحت منظمة تسير حياة الشعب من جميع نواحيه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . لقد اصبحت مؤسسة مسؤولة امام الشعب ومسؤولة عنه واصبح للشعب حقوق ومسؤولية في الحكومة . فمن اولى واجبات الحكومة ان تعد جهازها لخدمة الشعب وان تكيف اعمالها ونفسيتها حسبما تقتضيه مصالح شعبها ، كما انه يتوجب على الشعب ان يعاون الحكومة التي تشرف على أمره في كل عمل من اعمالها : في المحافظة على النظام ، في تطبيق القوانين وتنفيذ المشاريع . وهذه الالفة الروحية بين الشعب والحكومة ، كما ذكرنا سابقاً ، تكاد تكون عديمة الوجود . ان الاعتراف بعدم هذا الانسجام امر ضروري ـ وتداركه او اصلاح العلاقة بين الفريقين يجب ان يكون موضوع عناية خاصة ، ولا تحل المشكلة الا باتباع سياسة معينة ترمي الى بث روح الخدمة والتضحية والشعور بالواجب العام في نفسية الموظف . ان سياسة كهذه تقرّب الفلاح من الدولة وتكتسب ثقته بالحكومة فيتعاون معها ويسهل مهمتها الاصلاحية فيحل الوئام مكان الخلاف وتتمكن الدولة من القيام بواجبها الاساسي نحو الشعب فتسير به نحو التقدم والعمران .

الحياة العائلية

« الامم قسمان : فمنها من تربت على الاتكال وهو عبارة عن ميل افرادها الى الاعتماد على الهيئة او الحزب من عائلة او عشيرة ... وغيرها لا على انفسهم . واكبر مثال لتلك الامم هو الشرق . ومنها من تربت على النشأة الاستقلالية اي ان كل فرد منها يعتمد على نفسه لا على الجماعة . واعظم مثال منها هي الامم الانكليزية السكسونية » .

سر تقدم الانكليز السكسونيين

●

العائلة هي اساس كل نظام اجتماعي وهي مظهر مصغر لأخلاق الامة . فيها نجد بذور العادات الاجتماعية السامية والاخلاق القومية القويمة ، وبها تتكون جراثيم المجتمع البشري المفسدة . اليها يعود اصل كل ناحية من نواحي التراث الاجتماعي وبواسطتها تنتقل صفات المجتمع من جيل

الى جيل. هي احياناً مطهر لكل ما بني عليه الجنس البشري من شر وفساد ـ تصهر المجتمع وتطهره مما فطر عليه من تراث حيواني وتهذب غرائزه وتقوي فيه تقديره لمثل الحياة العليا . واحياناً هي بؤرة تنشأ بها مفاسد المجتمع البشري وتربى بها عادات واخلاق تبرأ منها المدنية .

التربية العائلية هي مقياس التربية القومية ـ والاقوام تختلف بعضها عن بعض في اخلاقها وعاداتها ، في نشاطها وانتاجها ، في تحملها للشدائد ، في نفوذها من الازمات وفي حيويتها واستعدادها للحياة ، بالنسبة لأختلاف التربية العائلية فيها.

ولو أمعنا النظر في مشكلاتنا الاجتماعية وفي مواطن الضعف في حياتنا القومية لوجدنا ان معظمها ناتج عن التربية البيتية او انه امر كان بالامكان اصلاحه بواسطة التربيةالبيتية.

•

لسنا في مقام استعراض قضية التربية العائلية من جميع وجوهها . فقد افرط الكتاب في بحثها واشاد الخطباء بأهميتها وضرورة اقامتها على دعائم ثابتة ... ولم يجدنا ذلك نفعاً ولم يبدل الحالة . انما غايتنا من بحث هذه المشكلة الاجتماعية هي كشف الغطاء عن ناحية محدودة لها مساس

بالنهضة الريفية وهي جزء مهم من مجموعة القضايا الاجتماعية التي تؤثر بالنهضة الزراعية والتي نحن الآن بصددها .

التربية البيتية هي نتيجة تفاعل ، على حد التعبير الكيميائي ، بين الوالدين والابناء . هي اذاً قضية ام وأب وولد وتفاعل كل منهم مع الآخرين .

الأمّ :

كلنا يعلم أهمية المرأة كعامل اجتماعي تربيوي ويدرك ان المرأة مركزاً خاصاً في البيت وترتب عليها مسؤوليات جسام وانه من الضروري اصلاح حالة المرأة واعدادها للقيام بالواجبات المهمة الملقاة على عاتقها . ولا حاجة بنا لخوض معمعة الحركة النسائية وقضية تحرير المرأة فأن ما يكتب حول هذا الموضوع لن يأتي بشيء جديد ولن يبدل الحال . بل ان من شأن اي مقال عن موضوع المرأة في الشرق اما أن يلقى في سلة المهملات ـ هذا اذا كان من النوع العادي ـ او ان يثير حركة رجعية تعود بنا القهقري فيضر من حيث شاء المنفعة .

أنما لا بد من التلميح ولو باختصار الى ان المرأة « التي

تهزّ السرير بيمينها وتهزّ العالم بيسارها » لا يصح ان ينظر اليها كجسم المتعة او كعامل للحقل او خادم بالبيت . وما دامت المرأة في هذا المستوى الاجتماعي فلن ترتفع الى المستوى الذي يليق بها ولن نستفيد منها كمربية للنشء الجديد وكعامل فعال في تكوين الامة ولن تكون جديرة بان تدعى شريكة للرجل . بل انها تبقى عالة على المدنية وعقبة في سبيل كل تقدم .

ومن الغرابة بمكان أن نظرتنا نحو المرأة تشمل المتناقضات : فبالعين الواحدة ننظر اليها كحرمة مقدسة لها المقام السامي المشفوع بالاحترام والاجلال ـ وبالعين الأخرى ، وفي آن واحد ـ ننظر اليها كمخلوق وجد فقط لمتعة الرجل الدنيا ، وليس بها من خير سوى ذلك !! ان كل الحيف الذي يصيب المرأة في مجتمعنا وكل الجهل الذي بليت به وكل الآلام التي يتعرض لها المجتمع والآفات الناتجة عن المرأة ، كل ذلك ناتج عن نظريتنا في تقديس هذه « الحرمة » وفي التمتع بها. أن القيود التي نحيط المرأة بها والحقوق التي نحرمها أياها والاعمال المفيدة التي نحرمها من القيام بها ـ كلها لغاية واحدة وهي المحافظة على حرمة المرأة وقداستها .

اما وقد جلّ الخطب ووصلت المرأة الى درجة من الانحطاط الثقافي والاجتماعي فتعطلت وظيفتها كمربية للنشء الجديد ، فعلينا ان نعيد النظر في مركز المرأة في حياتنا الاجتماعية وان نؤهلها للقيام بواجباتها التربيوية .

الأدب :

عندما نتكلم ، أو بالأحرى عندما يتكلم الرجل عن فساد التربية العائلية في الشرق فانه يوجه مجمل انتقاده نحو المرأة كأنها هي وحدها المسؤولة عن العائلة وكأنه هو الرجل الأكمل الذي لا تشوبه شائبة . والحق يقال ان النظام العائلي في الشرق هو نظام « مذكّر » وان هذه الدنيا هي دنيا الرجل لا المرأة . وان اولى الانتقادات التي توجه للنظام العائلي هي ذلك « المركز الممتاز » الذي يتمتع به الاب في العائلة . وليس ببعيد عن الحقيقة والمنطق ان يكون هذا المركز الممتاز هو السبب الأساسي لفساد التربية العائلية . انه على الأقل السبب الاول لتأخر المرأة ... وحسبنا في ذلك دليلاً على فساده .

اننا معشر العرب نقدس الشيخوخة ونحيطها بكثير من الاجلال والتقدير . نحترم من كان اكبر منا سنّاً فلا نتقدمه لا سيراً ولا كلاماً .

« وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً. اما يبلغنّ عندك الكبر احداهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً واخفض لهما جناحَ الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا »

(قرآن كريم)

ان الاحسان الى الوالدين واحترامهما واجلالهما صفات مستحبة لا ينكرها احد . ولكن هذه الصفات قد تجسمت وتعظمت في حياتنا الاجتماعية حتى اعطت هذه الحياة طابعاً خاصاً يتعدى احترام الابن لابيه وقيامه بواجبه نحوه الى استعباد الابن من قبل ابيه والسيطرة على روحه وعقله ونشاطه .

« انت ومالك لابيك »

(حديث شريف)

فالأب هو رب العائلة يسيطر على مقدراتها المادية والمعنوية . اولاده هم جزء من ممتلكاته في هذه الدنيا يتصرف بهم كما يشاء ضمن نطاق القوانين المدنية .

هذا النظام العائلي الذي يكون به للاب سلطة معنوية قوية يعرف بالنظام البطريركي (الابوي) Patriarchal System وهو النظام المتبع في بلادنا . ان لهذا النظام سيئات جسيمة ينفذ

تأثيرها الى قلب المجتمع فيشل تقدمه ويؤخر انتاجه . رب العائلة يجمع في شخصه « القوى التشريعية » و « القوى التنفيذية » . هو يملك الارض ويستغلها بمساعدة ابنائه . وابناؤه يبقون حوله حسب مشيئته وارادته .

يتزوج الابن حسب ترتيبات والديه ويبقى معهما في بيت واحد يعمل تحت سيطرتهما . ويصبح الأب شيخاً عاجزاً عن العمل ويبقى ابناؤه تحت امرته ويتصرفون حسب مشيئته ويخضعون لارادته ويتطبعون باطباعه وافكاره وهم يقومون بذلك من قبيل الطاعة واحترام الوالدين واعتقاداً منهم بان والدهم هو اقدم دهراً واوسع خبرة واصوب رأياً . وهو يتابع سيطرته وتدخله بامورهم اعتباراً منه بانهم « اولاد » جهلاء ليس لهم الخبرة الكافية لادارة شؤونهم الخاصة .

هذه هي الحالة الراهنة بين الاب والابن في نظامنا العائلي فما هو تأثير ذلك في التربية الاجتماعية وفي النهضة الزراعية؟

١ ـ الانطابة :

ان الابن الذي لا يعطى حرية العمل والذي يسير في تفكيره واشغاله بآراء من هم اقدم منه سناً وخبرة ينشأ

اتكالياً فيعتمد دائماً على مشورة غيره ويضعف ايمانه بنفسه فيخسر الثقة بالنفس والاستقلال بالفكر . وقد قال ادمون ديمولان في كتابه « سر تقدم الانكليز السكسونيين » (صفحة ٨٩) ما يلي :

« الامم قسمان : فمنها من تربت على الاتكال وهو عبارة عن ميل افرادها الى الاعتماد على الهيئة او الحزب من عائلة او عشيرة . . . وغيرها لا على انفسهم . واكبر مثال لتلك الامم هو الشرق . ومنها من تربت على النشأة الاستقلالية اي ان كل فرد منها يعتمد على نفسه لا على الجماعة . واعظم مثال منها هي الامم الانكليزية السكسونية ».

اننا نربى منذ نعومة اظافرنا على الاتكال على الغير . اذا وقع الولد في صحن الدار تفزع له والدته بلهفة وذعر فيزداد المه وبكاؤه ، وفي المرة الثانية لا ينهض من كبوته حتى تنشله امه من الارض . وعندما يترعرع الولد يتبعه والده بنصائحه واوامره افعل . . . ولا تفعل . . . فينشأ الولد الشاب اتكالياً خالياً من النزعة الاستقلالية الشخصية غير صالح لتحمل اي مسؤولية .

٢ ـ الطموح والمغامرة :

في الشاب روح طماحة ثائرة وفيه قوة كامنة تطلب الانعتاق او الانفلات وهذا ما يجعل الشاب مغامراً يطلب التجديد ويهوى المخاطرة ويمقت الاستقرار . ان هذه الروح هي التي تقود الأمة بنزعاتها الثائرة الى الامام وهي التي تفتح امامها ابواباً جديدة من العمل وآفاقاً بعيدة من الامل .

اما الشاب الذي يربى في ظل النظام الابوي فانه يخسر هذه الروح وذلك الطموح والمغامرة بسبب ما يلقاه من والده العجوز من كبح الجماح وتركيد النفس وتثبيط العزيمة .

أن تقدم الزراعة ، او أي عمل آخر ، يتطلب محاولات هي بمثابة تجارب جديدة . جرت العادة ان تزرع كذا وكذا بطريقة كذا وكيت ـ علينا ان نفكر ونختبر طريقة جديدة ونوعاً جديداً من المزروعات . من دون ذلك لا يحدث تقدم او رقي . الأبن بطبيعته يميل الى المغامرة ـ الى التجربة . اما الأب فهو الرجل الحكيم الناضج ، الراكز ، المستقر ، الذي اختبر الدهر وعرف كل شيء ـ هذا الأب يسكب الماء البارد على ابنه الناهض المغامر ويقول : يا ابني نحساً

تعرفه ولا جيداً تتعرف بـه . ما أنت باكثر حكمة من الذين سبقوك في هذه الحياة ... ولا يلبث المولد بعد بضع محاولات أن يستسلم لمشيئة أبيه فيموت طموحه وتخذل نفسه المغامرة فيسير في طريق والده . ولا خير في رجل زال طموحه واندفاعه ولا خير في أمة لا تطلق لفتيانها العنان .

٣ـ المحافظة على القديم وبغض التجدد

النظام البطريركي يضع كل القوة في يد الأب . والأب بعد أن فقد نزعة الشباب وروح التقدم ، اصبح راكناً مستقراً يكره التبديل والتحويل لذلك تراه محافظاً يأبى التجدد . وهذه المحافظة على القديم تجعله يحمل مشعل الرجعية والتفكير الجامد والعمل التقليدي ويسلمه الى ابنه الذي بدوره لا يلبث ان ينقل هذا المشعل الى الجيل التالي . وهكذا فأن الامة تصبح محافظة على تقاليدها الزراعية والاجتماعية بفضل النظام الأبوي في العائلة فتركد وتتأخر بينما العالم يسير متقدماً الى الامام . وان هذا « الجمود مرض عضال والسير في الحياة اجيالا متتابعة على نمط واحد يحول

دون الارتقاء » (١)

وخلاصة القول ان التربية العائلية التي يفرض فيها ان تكوّن شخصية الامة هي تربية تجعل منا اشخاصاً لا يصلحون للتنازع للبقاء وتدمغ الفلاح بطابع الضعف والرجعية. فالمرأة ليست عاملاً فعالا في بناء العائلة والرجل بمجرد سيطرته على افراد عائلته يقتل في النشء الجديد روح التقدم والنشاط ويدربهم على الاتكال على الغير وعلى المحافظة على القديم ومقاومة كل ما هو حديث مستجد . ان وضعية العائلة هذه هي اذن عقبة في سبيل النهضة الزراعية لا يسعنا التغاضي عنها .

(١) الدكتور شهبندر ـ القضايا الاجتماعية الكبرى ص ٣١

المدرسة

« ان مستقبل هـذه البلاد يتوقف على التعليم الذي يتلقاه شعب هذه البلاد »:

وزراتلي

•

أن نشر التعليم والمعرفة بين مختلف طبقات الشعب هو الخطوة الاولى نحو التقدم والعمران . والهدف الاول للتعليم هو القضاء على الامية .

الأمية هي اكثر الآفات الاجتماعية انتشاراً في العالم العربي ، وربما تكون اشدها فعلاً في تأخر الأمة . هي بالحقيقة السبب الاول لمعظم الآفات الاجتماعية التي تنخر في جسدنا ؛ والجهل ، الذي هو وليد الامية ، هو الذي يعمي بصائرنا ويتركنا نتخبط في دياجير الظلام وفي بحر الخرافات

والسخافات . أن معظم سكان البلاد اميون لا يقرأون ولا يكتبون ، حتى في لبنان البلد العريق بالعلم ، فان ما لا يقل عن اربعين بالمئة من سكانه اميون ، فماذا نقول عن الدول العربية الاخرى ، وهي الحديثة العهد بالعلم والتعليم ؟ وأين نحن من ذلك الهدف الاول للتعليم وهو القضاء على الامية ؟ تتدنى نسبة الامية في معظم الامم المتمدنة الى حوالي ٥ ـ ١٠ بالمئة بينما في بعض طبقات الشعب عندنا نجد الذين يقرأون ويكتبون لاتصل نسبتهم الى الخمسة او العشرة بالمئة .

والرجل الامي الذي لا يطالع اخبار الآخرين ولا يكتسب من اختبارات السابقين والبعيدين ، والذي لا ينفتح عقله لتنسم اعمال الفكر البشري ، انه يعيش في ظلام دامس وفي محيط ضيق ويبني حول عقله جداراً حديدياً من الرجعية والتوكل ، من المحافظة على القديم والتخوف من الجديد ، جداراً يحول دون دخول افكار جديدة الى عقله ، فيصاب الاميّ بالركود الفكري ويتدنى عن المستوى اللائق للبشر . والامة التي يكون القسم الاوفر من رجالها من هذا النوع لا يمكن ان يرتفع مستواها ، وانها لن تسير بعيداً في طريق التقدم والنهوض قبل ان تحرر عقلية شعبها من القيود

والاثقال التي ترافق الامية . فنشر العلم بين طبقات الشعب يفتح عقله ونشر المعرفة يحرره من القيود التي يفرضها الجهل ويبدد ظلمتها . ان انتشار التعليم الابتدائي في القرى سيؤدي حتماً الى التخفيف من وطأة الامية انما التعليم المدرسي الابتدائي وحده لن يقضي على الامية . فقد تبين من بعض الدراسات والابحاث ، ان المرء لا يلبث ان يفقد مقدرته على القراءة والكتابة ما لم تتح له الفرصة للمطالعة بعد خروجه من المدرسة . واننا في هذه المرحلة من التعليم – مرحلة القضاء على الأمية – نخطىء المرمى لأننا نهتم بانشاء المدارس الابتدائية ومنح شهاداتها ، ولا نبدي اي نشاط او أقل اهتمام بقضية متابعة التعليم بعد سن الدراسة الابتدائية . فابناء القرى لا يجدون المطبوعات الموضوعة خصيصاً لهذه الطبقة من المتعلمين ولا توجد لهم الوسيلة لتثقيف عقلهم وتوسيع مداركهم فلا يستفيدون ثقافياً من معرفتهم للقراءة كما انهم لا يلبثون أن يفقدوا هذه المعرفة فيرجعون القهقرى.

أن الدولة التي تسيطر الأمية على شعبها تبقى محدودة الامكانيات ، وهي تعمل تحت عبء ثقيل يحرمها النهوض وفي وجه سدّ منيع لا يخرقه الاّ العمل على نشر العلم

والثقافة . واننا عبثاً نحاول النهضة في اية ناحية من نواحي المجتمع ـ الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ـ ما لم نبادر اولا ، وقبل كل شيء آخر ، الى القضاء على الامية وتحرير الفكر وايقاظ العقل .

•

اما الهدف الثاني من التعليم فهو « التربية » الوطنية ، او بالاحرى خلق او تكوين الامة . هذا هو « سفر التكوين » الذي بموجبه تخلق الامة وتطبع بطابع خاص . قال رجل الدولة الانكليزي دزرائيلي متكلماً عن بلاده : « ان مستقبل هذه البلاد يتوقف على التعليم الذي يتلقاه شعب هذه البلاد » .

المدرسة هي كالمصنع : « تصنع » شعباً وتكون اخلاقاً ، وتطبع افكاراً وتصور اهدافاً . وباختصار فهي تكوّن الامة وتعين لحد بعيد ، مدى امكانياتها . والشعوب اليوم تختلف بعضها عن بعض بقدر اختلاف « المدرسة » التي نشأت حولها تلك الشعوب . وخير مثال لتاثير المدرسة العميق في النفس هو ليس ما نشاهده بين شعب وآخر ، بل ما نشاهده بين اخ واخيه على الاخص في بلادنا حيث تعددت

« المدارس » واختلفت طرقها واهدافها وتنوعت عقلية المشرفين عليها . انك تجد في مدينة واحدة مثل بيروت المدارس الحكومية والمذهبية والافرنسية والاميركية والانكليزية والايطالية ولكل من هذه المدارس طرق خاصة بها . وخريجو هذه المدارس مطبوعون بطبائع خاصة فهم يختلفون بعاداتهم واخلاقهم وتفكيرهم ونسق معيشتهم رغم انهم من شعب واحد واحياناً من بيئة او عائلة واحدة . وهذا التباين الناتج عن نوع المدرسة التي نشأوا في ظلالها وتخرجوا منها مصبورين بقالبها الخاص ، هو دليل واضح على تأثير المدرسة ونظام التعليم في تكوين الامة . وما دام الامر كذلك فعلينا ان نمحص هذه الناحية من تراثنا الاجتماعي لنرى ما اذا كانت مدارسنا تمهد السبل لنهضتنا الزراعية الريفية او انها تتخبط خبط عشواء فلا تصيب الهدف الذي نبتغيه .

لقد بحثنا فيما مضى من هذا الكتاب العوامل الاجتماعية التي تعوق التقدم الزراعي واظهرنا ان الطريقة الحكيمة للأصلاح الزراعي هي العمل في الاساس قبل الفروع - هي تحضير العامل البشري في الزراعة قبل تحضير الاعمال الميكانيكية او الطبيعية - وخير وسيلة لتبديل وتقويم هذا الاساس

الاجتماعي للنهضات القومية المختلفة هي المدرسة . فلننظر اذاً في مدرستنا ولندرسها كعامل اجتماعي مفروض فيه ان يكوّن الامة ويأسس بنيانها .

يرجع تاريخ المدرسة الحديثة في بلاد العرب الى بضع سنين ويتفاوت هذا التاريخ قدماً بالنسبة للمنطقة او البلاد . فبعضها حديثة العهد بالمدرسة العصرية وبعضها قد مضى عليها بعض الزمن . ولكن جميع الاقطار تشعر انها في بدء نهضتها العلمية وهي تسعى جهدها لزيادة المدارس ونشر المعارف . والغريب في امرنا انه بينما نحن في دور الطفولة العلمية ـ في دور الدعوة للعلم ـ ترانا نشاهد اضرار العلم ونتساءل عن مضاره !! الشعب لا يزال نصفه امياً ومع ذلك نرى للعلم سيئات وبعضنا يعتقد انه يجب ان يوضع له حدّ معين ، بينما بلد كالولايات المتحدة مثلاً ، والامية لا تزيد فيها عن الخمسة بالمئة ، ومعظم المواطنين فيها نالوا الشهادات العالية ، فان كثرة العلم لم توجد عندهم المشكلة التي اوجدتها مدارسنا . كثيرة هي جامعاتهم ومع ذلك هم لا يشكون شكوانا من وفرة المحامين والاطباء والمهندسين . عديدة هي مدارسهم العالية ومع ذلك هم لا يجابهون قضية العاطلين عن العمل بين المتعلمين ـ

بينما نحن نغرق في سيل « طفيف » من حملة البكالوريا !!

يجب ان نستنتج من هذه الحالة انه لا بد ان يكون في مناهج التعليم المتبعة في بلادنا بعض النقائص التي تشل العلم و تضيع الفائدة المتوخاة منه . « و المنهج » لم يكن له فيما مضى من نهضتنا العلمية الحديثة المقام الذي يستحقه في نظام التعليم . لقد كان هدفنا الوصول الى معرفة القراءة والحساب واللغات الاجنبية مع بعض النواحي المسلكية التي تؤهلنا لعمل ما . وكان مقياس الرجل المتعلم المثقف ما يتقنه من اللغات الاجنبية . وكان يضع المنهج جماعة من الاجانب الحكام الذين تعمدوا استخدام مناهج التربية لغايات استعمارية ولم يمحصوا حاجاتنا الوطنية وما توخوا اصلاحها .

و بعد الجلاء ـ وفي عهد الاستقلال ـ عادت مقدراتنا بيدنا وقد كنا سريعي الاهتمام بهذه الناحية من الاصلاح وادركنا اهمية المنهج في تكوين عقلية الامة واتحادها ونشاطها فبادرنا الى معالجة هذه القضية معالجة حاسمة للقضاء على ذلك الأثر السيء الذي تركه الاجنبي في مدارسنا ولتطهير المناهج من كل ما لا يتفق واهدافنا الوطنية و برامجنا الاصلاحية . فتشكلت اللجان في لبنان واحيطت كالعادة بالدعاية الوفيرة

التي تليق بعمل رفيع كتعديل منهج التعليم . واشتركت العناصر المختلفة التي هي وليدة مناهج مختلفة متناقضة لتضع منهجاً موحداً !! . وجرى في سوريا ما يعادل ذلك فعينت الحكومة خبيراً في التربية لاعادة تنظيم المنهج . وشعرنا جميعنا ان البلاد حقاً تسير في الصراط المستقيم وها هي تبدأ بوضع الاساس . فما كانت نتيجة هذه المحاولة ؟

افتتح وزير المعارف في لبنان اعمال اللجنة بخطاب لخّص فيه اهدافها فاذا بها تنحصر بامرين : ١ ـ حب الوطن، و٢ ـ لغة الاجداد . هذا هو هدف المدرسة . تعليم النشء الجديد، حب الوطن وتعزيز اللغة العربية ورفع شأنها . ولو كان « حب الوطن » يدرس كما يجب لما ضاعت فائدته اما حب الوطن عندنا فهو تمجيد الاجداد ـ الامر الذي افرطنا بالاهتمام به حتى اصبح يعتبر نقيصة من نقائصنا الثقافية . نحن اخترعنا الابجدية ـ نحن جبنا الآفاق نحن حملنا مشعل النور والعلم : فناموا على الثقة يا ابناء الوطن الاعزاء ... هذا هو ملخص وطنيتنا . اما الوطنية البناءة التي تشيد وطناً قوياً بابنائه ، وتجعل الطالب يشعر بواجباته القومية وتربي فيه الصفات المدنية القويمة ليكون عضداً لهذا الوطن ، فما هي

بالامور التي تستجدي « التصفيق الحاد » كغيرها من الامور العاطفية فلا نضعها في المقام الاول .

وقل الشيء نفسه عن اللغة . فاننا نهتم باللغة العربية ليصبح الطالب اديباً وفناناً لغوياً ولا بأس ان حرمناه مقابل ذلك من التضلع بالعلوم والابحاث العلمية المفيدة .

وما ان بدأت اللجان اعمالها حتى شاهدنا الجدال يحوم حول تفصيلات يجب ان تترك لمدير المدرسة : هل نبدأ تعليم اللغة الاجنبية في الصف هذا او ذاك وكم ساعة تعطى هذه اللغة بالاسبوع ؟ ما هو مستوى اللغة العربية وماذا ندرس عن تاريخ البلاد ؟ اما في سوريا فقد حمى الوطيس حول شهادة البكالوريا : اموحدة أم على جزئين ؟! وانقضي الامر وخطونا الخطوة الكبرى في تعديل المنهج واكتفينا بمعالجة قضايا مدرسية بحتة . اما القضايا العليا في فلسفة التربية التي تدخل في صميم كيان الامة ، فهي من اختصاص الخطب والمقالات . هي بضاعة للنشر لا للتطبيق . والتعليم الذي يصهر شعباً ويصيغ امة ويخلق خُلقاً فما تعرضنا له مطلقاً في ابحاثنا العملية وما رفعنا عنه الستار . لقد بحثنا منهج التعليم دون ان يكون لنا منهج عام او فلسفة خاصة في انشاء

الدولة وتطور الامة . لقد فكرنا باصلاح المنهج وكان يتوجب علينا ان نفكر بوضع منهج .

•

منهج التعليم ينبثق عن :

(١) حالة الامة ومشاكلها وقضاياها

(٢) وعي الامة وفلسفتها التقدمية

يعني أن جوهر المنهج يتوقف على نوع المشاكل وعلى مقدرة الامة في ادراك حقيقة هذه المشاكل ورغبتها الصادقة في اصلاحها . فيتوجب علينا عند التفكير بوضع منهج « انشائي » للمدارس ان نشرح الامة تشريحاً تاماً وان ننظم جدولا بنقائصها واخطائها وقضاياها الاجتماعية ثم بطريقة علمية نخصص في المنهج ابواباً خاصة لاصلاح هذه الاخطاء . ومتى استهدفنا من التعليم اصلاح الاخطاء وتقويم الاعوجاجات ، لا تقديم الطلاب للامتحانات ونيل الشهادات ـ متى استهدفنا ذلك فاننا لن نعدم وسيلة للوصول الى هدفنا . أما ان ننشر العلم من اجل العلم في مدارسنا الابتدائية والثانوية وان نلقن الطالب تلقيناً بعض المعلومات الفنية حول

اللغة والحساب والتاريخ والجغرافية والكيمياء وان ندخل بهذه المعلومات الى عقله دون الوصول الى قلبه فاننا بذلك نساعد على تجسيم نقائصنا وتوسيع اضرارها كمن يأخذ الرمح من يد رجل شرير ويعطيه البندقية بدلا عنه.

لقد بحثنا فيما مضى من هذا الكتاب بعض المشاكل الاجتماعية التي تعيق تقدمنا ونهوضنا. واننا نجد من بحث منهج التعليم ان اصلاح معظم هذه القضايا يعود للمدرسة. والمنهج الصحيح التي نتوخاه هو ليس المنهج الذي يعد عقلنا لاحراز شهادة عالية بل المنهج الذي يدخل الى صميم حياتنا ومجتمعنا ويقوّم ما كان فيه معوجّاً.

واني اسرد فيما يلي بعض الصفات القومية التي لا يمكن اصلاحها الا عن طريق المدرسة والتي تهملها مناهج التعليم التي تتوخى اللغة والعلوم وتستهدف الشهادة.

١. الفردية:

أمر متفق عليه لا يحتاج الى برهان: اننا نحن اجمالا فرديون يعمل كل منا منفرداً ولا يرضى التعاون او الشراكة مع اخوانه، «الشركة ما فيها بركة». «العب وحدك ولا

تغتاظ » . امثال الشعب تدل على اخلاق الشعب .

وهذه الفردية عززت روح المنفعة الذاتية وقضت على روح الخدمة العامة والشعور بالمسؤولية نحو المجتمع . انك تكاد لا تجد فينا اثراً للعمل المشترك الا في حالة غزو او جهاد طائفي .

لقد نشأنا على هذا الشكل ولا نزال سائرين باتجاه الفردية . خذ مثلاً على ذلك العاب الاولاد وتسلية الكبار في القرى والمدن تجد جميعها تتطلب العمل الفردي : هي سباق لتفوق الفرد لا الجماعة . أكانت هذه الالعاب اللعب بالكرة، او الجري السريع او القفز او التسلق او رفع الاثقال او الفروسية . فهي جميعها تقوي روح الفردية ولا تشجع على التعاون والعمل مع الغير على اساس تضحية المنفعة الشخصية في سبيل المنفعة العامة . بينما نجد عند بعض الشعوب الاخرى ان معظم هذه الألعاب القومية (البلدية) هي من النوع الذي يتطلب التعاون ويبتغي العمل لا من اجل اظهار قوة الفرد ورفعه على انقاض الآخرين ، بل لاظهار قوة الجماعة الناتجة عن التنظيم والتضامن .

يجب ان لا نستخف باهمية هذا الموضوع من حيث

قوى الأمة الاقتصادية والسياسية وعلاقة الافراد بعضهم ببعض . ويجب ان نحور منهج التعليم بغية ان نشجع العمل المشترك ونقضي على الانانية والفردية . ان صفة راسخة مستعصية كهذه لا تصلح عفواً دون اهتمام خاص . فالمباريات الفردية مهما كان نوعها يجب ان لا تقدم على الالعاب التي تتطلب تشكيل الفرق والجماعات . اننا بحاجة الى رياضة لتنمية روح العمل المشترك لا لتقوية العضلات ـ لتنظيم الجهود لا لأجهاد النفس .

ثم أننا بحاجة الى منظمات اجتماعية في المدرسة لتدريب الطلاب على الخدمة العامة والشعور بالمسؤولية القومية: جمعيات اصلاحية تعمل لمساعدة الفقير ، او اصلاح الطريق ، او تشجيع القراءة في القرية او تعليم الاميين او الرفق بالحيوان الخ . وهدفها الاساسي ليس مساعدة الفقير او اصلاح الطريق او الرفق بالحيوان بل اصلاح عقلية التلميذ وتدريبه على رؤية المشاكل حوله وعلى الشعور بالواجب نحوها ، ودحر الاعتقاد السائد الهدام باننا امة لا يتعاون افرادها على خير ولا يهتمون بالصالح العام : هذا انفع للطالب من حفظ قصيدة للمعري كلها يأس وكآبة !!!

٢ . الحزبية العنيفة

في خصومتنا ، في خلافاتنا السياسية ، في اي تشيع لرأي ترانا نندفع بكل جد واهتمام فنعادي بعنف ، ونبغض بعنف ونكيد بعنف ـ ولماذا ؟ ليس دفاعاً عن مبدأ بل نكاية بشخص ما . ولماذا ؟ لأنه هزمنا في جدال او ربح في انتخاب او تفوق في عمل . وهذا الاغراق بالتحزب ناتج عن اننا لم نتدرب على تحمل الهزيمة في عمل ما بترفع وكبرياء كما يفعل لاعب كرة القدم عندما يخسر امام فريق آخر . هذه الروح الرياضية Sportsmanship التي لا نعيرها اهتماماً هي احدى معالم المنهج الاميركي ، فهم لا يألون جهداً في بث هذه الروح في النشء الجديد وتدريبه عليها . فلتكن في مدارسنا « احزاب » رياضية او ادبية او خلافه ـ لا لتغذية روح الحزبية الممقوتة في القرى ـ بل لتدريب الطالب الصغير على الحزبية الممزوجة بشيء من الروح الرياضية الخالية من الكيد والحقد الشخصي . نعم الحزبية السمحة لتحل محل الحزبية اللئيمة ـ وقد قيل قدماً :

« وداوني بالتي كانت هي الداء »

٣ . الارتجال ـ عدم التخطيط والتنظيم

وهذا مرض عضال ينخر في جسد الامة . فهل تجدون علاجاً له في المدرسة ؟ طبعاً الدواء ليس بان « يرتجل » المعلم خطاباً حول مضار الارتجال وضرورة التخطيط والتنظيم ، ولا ان يحدد في البرنامج اليومي ساعة خاصة لبحث درس «التنظيم وعدم الارتجال » . انما امور كهذه يدرب عليها التلميذ في كل درس من دروسه وكل عمل من اعماله . متى عندما يعترف « المنهج العام » بضرورة العمل في هذه الناحية .

وعندما يدرك المعلم أهمية هذا التوجيه ـ وعندما يعلم أن واجبه الاول ليس التلقين بل التدريب ، وليس مساعدة التلميذ على نيل الشهادة بل مساعدته على النشوء العقلي . وعندما تشعر الادارة ان الخروج عن تقاليد البرنامج ووصايا المنهج من اجل طبع عقلية التلميذ بطابع صالح ـ ليس جريمة لا تغتفر .

٤ . الاكتفاء والغرور

وهل تجد فينا صفة ابرز من الاكتفاء والغرور ؟ ينال الفرد قسطاً ضئيلاً من العلم فيصاب رأسه بالانتفاخ . هو اعلم

العلماء وكفى . ولا ترى روح الاستطلاع والتثقيف والاستزادة موجودة في معظم المثقفين في هذا البلد !! هم يأخذون المعلومات من الكتب ولكنهم لا يتملكون ناصية هذه المعلومات فلا يتشبعون بالروح العلمية المسلكية ولا يتعرفون باصول الدرس والتنقيب ولا يتصفون بصفات العالم المفكر الذي لا يقبل الامور على عواهنها بل انه يتملكهم الغرور ولا شيء اضرّ بالفتى وبالامة من غرور يعمي البصيرة ويسد الطريق .

ومدارسنا هي المسؤولة عن هذه العقلية الهدامة التي تبثها في رؤوس المتعلمين منا . ولو ادركنا واعترفنا بهذا الوضع لاقبلنا على تبديل في نظام التدريس والتعليم قبل الاقبال على زيادة عدد ساعات التاريخ او تحوير عدد سني الدراسة .

انه بامكاننا الاسترسال في تعداد نقائصنا القومية التي يجدر بنا اصلاحها عن طريق منهج التعليم . وكل من اطلع على أساليب التربية المدرسية الاجنبية وشاهد صفات شعوب فاقت شعبنا في مضمار المدنية ليرى في مظاهر الحياة التي تبدو سطحية ، سر تقدم تلك الامم .

ان عظمة الامة تنتج عن طريقة تصرف تلك الامة

في ظروف معينة ، والعظمة تكون وليدة صفات عديدة بسيطة قد لا تبدو كل واحدة منها مهمة بذاتها ، انما مجموعها هو الذي يكون العظمة او الاستعداد للتقدم .

ماذا نصنع في ساعات فراغنا ؟ هذا امر لا يخطر ببالنا ولا يستلفت نظر احد منا . هو امر طبيعي عندنا لا يثير اي اهتمام . بينما الرجل الاجنبي عندما يشاهد المقاهي والملاهي في في المدن تعج بالزبائن من الصباح الباكر لغاية آخر الليل يتساءل : أليس لهؤلاء القوم من عمل ؟ وكيف يجد الانسان السلوى في الكف عن العمل ؟ أليس لهم عمل للتسلية Hobby خير من هذا الركود الجسدي والعقلي ؟ ! اين الخطط « في ما بين سطور المنهج » التي تنبه انظار الطلاب الى حسن الاستفادة من وقت الفراغ . . . والطلاب هم روّاد المقاهي !!

ونقيصة اخرى تكاد تكون عامة فينا هي عدم المثابرة على العمل . ترانا شعباً ثورويا فورياً . نثور او نقدم على شيء فنضع قوتنا دفعة واحدة فان نجحنا نلنا اربنا وان لم ننجح حالا خارت قوانا فنتراجع عن العمل . . . كالحصان العربي الذي يضع كل جهده في اول المضمار ثم يستسلم .

او كالبدوي الذي يبدو جباراً في غزواته القصيرة الأجل ، وضعيفاً خاملاً اذا كان الامر يقتضي عملاً طويل الأجل ـ ولا تلبث ان تخور قوانا . اليس هذا الموضوع جديراً بالاعتبار اكثر من الاهتمام بالوقوف والتحية عند دخول الاستاذ الى قاعة الدرس ، او الخروج من المدرسة والطلاب مكتوفي الايدي !!

وهناك نقيصة اخرى وهي ضعف ميولنا للعمل الصناعي ، ترى الفلاحين بالقرى وليس بينهم من يصلح آلة او يعد اداة . وان وجدت نجاراً او حداداً فهو غريب عن البلد . وترى اهل المدن ومنهم من لم يدق مساراً في حياته او يصلح آلة . اليس توجيه التلاميذ نحو الاعمال اليدوية الصناعية واقامة المباريات في هذه الناحية خيراً من مباريات الشعر والخطابة ؟! وان ما ذكرناه في الفصل الرابع عن العقلية الادبية واضرارها في هذا العصر والعقلية العلمية واهميتها العملية لكاف ان يجعلنا نفكر جدياً في فلسفة البرنامج لا في عدد ساعات التدريس .

ثم انظروا الى علاقة الاستاذ بالتلميذ ؟ انها سخرية مدنيتنا الجوفاء . الاستاذ ، صاحب المقام الرفيع ،

يدخل القاعة فينتصب الطلاب احتراماً . يلقي الدرس فيرتعش التلميذ خوفاً من مقامه . يمر في الملعب فينقطع الهرج والمرج احتراماً لسعادته . ينتهي وقت التدريس فينقطع المعلم عن عمله كاستاذ وينسى مسؤوليته كمدرّب ولكنه لا ينسى مركزه الاجتماعي فيسير مختالا في القرية ليحيط نفسه بهالة من الكبرياء والترفع . ان من نشأ في مدارسنا الوطنية او في بعض المدارس الاجنبية التي ربما اقتبسنا منها هذه الطريقة لا يجد محذوراً في ذلك . وهل يحفظ الاستاذ هيبته امام الطلاب بغير هذه الطريقة ! اما من كان تلميذاً في المدارس الاميركية وشاهد المعلم او الرئيس يلعب مع التلاميذ كأنه واحد منهم ويعاشرهم خارج قاعات التدريس ليصل في تفكيره الى قلوبهم ويجهد نفسه طيلة النهار في اقواله واعماله وتصرفاته ليكون لهم قدوة حسنة صالحة ـ ان من تربى في ظل نظام من هذا النوع وادرك حسناته ليستغرب كيف اننا نسمح للاستاذ ان يحصر عمله داخل جدران المدرسة وان لا يتعدى المنهج الموضوع في بضعة اسطر . يدخل الطالب ليتلقى دروساً من صفحة كذا الى صفحة كذا استعداداً ليوم الدينونة ، ويأتي المعلم ليلقي درساً فنياً في موضوع ما استعداداً منه ايضاً

ليوم ... آخر الشهر . وينصرفان بعد ذلك عن بعضهما البعض ولا علاقة نفسية تربطهما . نرى الجامعة وليس بها طابع جامعي . يخرج الطالب من قاعة الدرس الى المقهى او غرفة النوم ... فلا بيئة جامعية ، ولا معشر جامعي ولا احتكاك بين الاستاذ والطالب خارج نطاق الكتاب وغرفة التدريس .

وخلاصة القول ان نقائصنا القومية التي نبتغي اصلاحها والميزات التي نريد خلقها لن تتيسر لدينا الا عن طريق المدرسة : المدرسة الناهضة لا المدرسة الكلاسيكية التقليدية. والمدرسة الناهضة الواعية هي المدرسة التي يكون لها منهج لا يستهدف القراءة والكتابة والحساب واللغة والعلوم فحسب ، بل يستهدف ايضاً واولا تدريب النشء الجديد وتسديد خطاه وتقويم اعوجاجاته . منهج منبثق عن جماعة يشعرون بالنقص ويؤمنون بالاصلاح ويدركون الوسيلة . والمنهج الذي يبتغي اصلاح الامة وخلق صفات جديدة فيها لا يحدد في سطور ولا يكتب باحرف انما يقرأ في ما بين السطور . ليس هو المنهج بنفسه ـ بل هو فلسفة المنهج ، وطابع المدرسة وروح المعلم تنساب متسللة الى قلب التلميذ فتبدله من حال

الى حال .

ان هذا النوع من التربية انوطنية السامية يتطلب اساتذة مسلكين تشبعوا بروح الاصلاح وتدربوا على العادات القويمة ـ اساتذة يبشرون بنهضة قومية جديدة ويضعون لها الاساس في عملهم اليومي، لا اساتذة موظفين يعملون من اجل الترقية ويترقبون بفارغ الصبر آخر الدوام وعطلة الصيف ـ اننا بحاجة الى اساتذة نشأوا في مدرسة غير هذه المدرسة التي نبغي اصلاحها .

الخاتمة

« اولى خطوات الاصلاح هي الاقتناع بضرورتـه » :

حافظ عفيفي باشا

•

لقد حاولت في هذا الكتاب ان ابين الاسس التي تبنى عليها النهضة الزراعية . وقد اقتصرت هذا البحث على وصف وتشريح المشكلات الريفيـة الاساسيـة ولم اتعرض لوسائـل حلها او مداواتها . وقد كان هدفي من ذلك ان اظهر اهميـة هذه المواضيع واخلق وعياً وادراكاً وتقديراً لها علّيَ اتمكن من تـكوين شعور بضرورة الاصلاح في هـذه النواحي . وقـد قال عفيفي باشـا ان « اولى خطوات الاصـلاح هي الاقتناع بضرورته ».

لقد دونت خلاصة الاستنتاجات التي وصلت اليها بعد انهماكي مدة طويلة في حقل الاصلاح الزراعي وانعاش الفلاح . واني لعلى يقين بان ما استنتجته من احتكاكي بالمشاكل الزراعية هو ذاته ما يستنتجه كل من يعمل في اصلاح اية ناحية من نواحي هذا المجتمع . فالنهضات الزراعية والسياسية والاجتماعية وغيرها ترتكز جميعها على استعداد الشعب للنهوض . والشعب لا ينهض الا اذا تهيأت له البيئة الاجتماعية الصحيحة ، اي ذلك التراث الاجتماعي الذي يظهر في اخلاق وعادات وتفكير وتصرفات مختلف طبقات الامة .

ان تراثنا الاجتماعي هو الذي يحبط مسعانا ويعوقنا عن التقدم . والشعوب الاخرى لا تفوقنا غنى ولا علماً ولا ذكاء ولكن تراثها الاجتماعي وثقافتها العامة ـ تلك المجموعة من الاخلاق والعادات والتفكير والتصرفات ـ هي التي تؤهلها للنهضة ، وهي بذاتها التي تحرمنا من النهوض .

لقد تقدمت بعثات اجنبية عديدة بتقارير خاصة عن زراعة البلاد وطرق اصلاحها واوضحت السبل التي يجدر بنا اتباعها ولم نستفد من هذه « الوصفات » لانه ليس لدينا

الاستعداد الكافي لتنفيذها . فان انشاء مختبر زراعي هنا والقيام بمشروع ري هناك ، قد يزيد الثروة الفردية او القومية ولكنه لا يصلح الزراعة وتبقى امكانياتنا الزراعية محدودة اذا لم ندخل الاصلاح في اساس القضية .

والامة التي تحاول التقدم عن طريق الانشاءات المادية ولا تسعى الى تدعيم كيانها الانساني ولا تهتم بالعامل البشري كأساس لبنيانها فانها تبني امة من المادة وتصنع هيكلاً لا روح فيه .

ان قوة الامة تستمد من روح شعبها ومن متانة اخلاقه وافكاره وتصرفاته لا من انتشار الطرقات واتساع السهول ووفرة الانتاج .

•

« تنبهوا واستفيقوا ايها العرب »

جميلة هي هذه الدعوة للنهوض . انما النهوض ليس استفاقة من نوم ولا هو يقظة بعد غفوة ـ بل هو سلسلة اعمال متتابعة كل حلقة فيها هي ركن لما يليها . والدعوة الحقيقية للنهضة هي تلك الدعوة الى تحليل القضية واظهار العوامل التي أدت الى الغفوة والرقاد وتخطيط الطريق التي يجب ان نتبعها للوصول الى هدفنا .

يجب ان نقوم « بجرد » صفاتنا القومية وتحضير « كشف » بمحتويات مجتمعنا واظهار نقائصنا « على المكشوف » دون تحيز او تعصب للعزة القومية وخير لنا ان نعترف ونتعرف بالفساد الذي ينخر في جسدنا وان نعالجه معالجة علمية مجردة من ان نتركه ليقضي علينا . وخير لنا ، ايضاً ، ان ندرس مجتمعنا درساً جدياً بغية وضع خطط الاصلاح ، خير لنا ذلك من ان نتجاهل الوضع الذي نحن به ونتحاشى ولوجه بشكل رسمي مسؤول بينما مختلف طبقات الشعب تتحدث عنه بشكل هدام ينشر عدم الثقة بالنفس ويبشر بضعف الامة وضآلة امكانياتها وضعف استعدادها فيثبط الهمم ويقضي على العزائم .

الحالة تتطلب عملية جراحية كبيرة لا المكمدات البسيطة . وما طريقنا بطريق مستقيمة بل هي طريق مشعبة تصل بنا الى صميم مختلف نواحي حياتنا الاقتصادية والاجتماعية . ومن طلب النهضة عن طريق مختصرة ، فهو يحاول عبثاً . اننا نعمل في بناء امة وعملنا هذا يكاد يكون محاولة لبناء امة من العدم . وفي هذا الدور الانشائي التأسيسي يجب ان ننشيء ونؤسس كما يفعل المهندس العالم لا كما يتصور الفنان الجاهل لأصول العلم . علينا ان نجابه الحقيقة لا ان نتهرب

منها ، وان تثور على كل ما يقف عثرة في سبيلنا لا ان نتغاضى عنه ، وان ننشد الاصلاح كمن يبني للمستقبل . ان البلاد العربية تتمخض ، ونحن على ابواب تطورات اضطرارية لا نعلم الى اين تقودنا اذا تركناها وشأنها . هـذه نكبة فلسطين وهي اولى العواصف التي هبت في وجهنا . لقد بينت هذه الحرب وهي الحرب الاولى التي نخوضها بعد فجر نهضتنا الحديثة ، بينت عيوبنـا ونقائصنا وعـدم اهليتنا لتنظيم اي عمل كبير واظهرت حقيقتنا التي لم يجهلها احد سوانا . ان شيئاً واحداً لم يظهر بعد : ما هو رد الفعل للفشل الذي بلينا به ؟

اذا اصيب الجسم بمرض ما فان الحرارة المرتفعة الناتجة عن المرض هي رد فعل ذلك الجسم لمقاومـة المرض . وان كان الجسم ضعيفاً لا قوة فيـه فالحرارة تبقى طبيعيـة ، او دون الطبيعية ، بينما المرض يجتـاح الجسم ولا تعترضه ايـة مقاومة ، فيقضي عليه . فهل في جسم الامة العربية المقاومة اللازمة وهل « ترتفع حرارتنا » على اثر هـذا الداء ؟ هل لدينا « الحيوية » او « الفعالية » التي تجعلنا نستيقظ ونثور على نفسنا ونكسر الاغلال الاجتماعية ونبدد الغيوم التي حرمتنا رؤية نقائصنا ونخرج من هذه النكبة اقوياء اشداء اجداء ؟

هنا تقع علامة الاستفهام الكبرى !! واني لا أخالنا الا مكتفين بزيادة عدد جيوشنا وبتضخيم موازناتها وشراء الاعتدة. ولن يمضي وقت طويل حتى ننسى الاسباب الحقيقية التي ادت الى اندحارنا فنعود الى ما كنا عليه من الثقة «الفارغة» والاعتداد بالنفس، وان الشعب سيخذلنا ثانية يوم تقع الواقعة لأنه لم ينظم ويدرب على تحمل حالة الحرب وتقديم الجهود اللازمة لها. وما كل ذلك الا لاننا هنا ايضاً سنخطىء في ادراك اسباب هذه الكارثة. انها، كما وصفها الدكتور جورج حنا، «اسباب تراكمت مع الزمن، وعمل في تركيزها الاستعمار، واحاطتها نظمنا الاجتماعية البالية بكل عناية. فالاقطاعية التي ورثناها، ولا نزال محافظين عليها والهوس الديني والروحاني، الذي نحله المحل الاول في كياناتنا، والجهل الذي نهدهده، لنغذي به رجعية، تشد بنا الى الوراء، في عالم يمشي بخطوات واسعة وسريعة الى الامام والتقاليد التي يأبى سوادنا الاعظم ان تمس قدسيتها». (١)

وان انخذال العرب الفاضح في قضية فلسطين لن يكون اعظم من انخذالنا في الناحية الزراعية الاقتصادية عندما

(١) الدكتور جورج حنا: «طريق الخلاص» ص ١٠

تنتهي ظروف « ما بعد الحرب » وتعود الامور الى مجراها الطبيعي وتقع الازمة الاقتصادية المنتظرة . فالاصلاح الزراعي الضروري لتدارك اخطار هذه الازمة واهوالها والذي يجب ان نقوم به ليكون لنا زراعة قائمة على اساس متين ثابت ، يتطلب اولا اصلاح الاعمال الزراعية الفردية . يعني مثلاً اصلاح طريقة زراعة القمح والاشجار المثمرة وتربية المواشي ومكافحة الحشرات والامراض الخ ... وثانياً يتطلب درس المشاكل الزراعية الكبرى ووضع واتباع سياسة زراعية عليا وتحديد وتقنين نوع المزروعات التي يجب ان نزرعها ومراقبة تجارتها وتسويقها الخ ... ففي الحالة الاولى سنجد الفلاح غير مستعد للقيام بالاصلاحات العملية المطلوبة منه بسبب جهله وفقره وسوء حالته الاجتماعية . وفي الحالة الثانية سنواجه المشكلة وليس لنا الاستعداد العلمي ولا الاداري ولا العقلي الكافي لتحمل اعباء هذه المسؤولية وللقيام بالواجبات المترتبة على الدولة .

أن طريقة معالجتنا للقضايا هي بحاجة الى تبديل كلي . فالعاطفة ، والارتجال ، والسطحية ، والرغبة بالوصول الى حل سريع مختصر ، كلها امور تضيع علينا جهودنا وتهدم عملنا .

يجب ان نتوقف قليلاً لنتساءل عن حقيقة مشكلاتنا ولنتعمق في درس اصولها وفروعها درساً علمياً وافياً ، ثم نشرع بتنفيذ الخطة المرسومة للهدف المعين .

لقد أصبح التفكير بالمشاريع الانشائية امراً عادياً مرغوباً فيه . وقد اقتبسنا هذه الفكرة عن الدول الاوروبية التي تضع برنامجاً لخمس سنوات تحدد به هدفها لزيادة الانتاج الصناعي او الزراعي ـ لفتح طرقات او انشاء اعمال معينة . انهم يفعلون ذلك لان حالتهم تتطلب وتستفيد من هذه الاعمال المادية ـ وقد توصلوا الى ذلك بعد درس قضاياهم المحلية . فهلا درسنا قضايانا وتفهمناها كما يجب ؟ وهلا انعتقنا من تقليد الاعمال الاوروبية واستعضنا عنها بتقليد التفكير او التنظيم الاوروبي لنرى ان ما نحن بامس الحاجة اليه ما هي المشاريع « العمرانية » من طرقات ومرافىء وري وطيران ... بل انما هي المشاريع « الاجتماعية » التي تبدل عقلنا وتفكيرنا وطريقة عملنا : المشاريع التي تخلق شعباً جديداً له الاستعداد للأستفادة من المشاريع العمرانية السابقة الذكر . لماذا لا نفكر بمشروع العشرين سنة (بدل الخمس سنوات التقليدية) لنقوم به ما اعوج من تراثنا الاجتماعي وما كان منه عقبة في سبيل

تقدمنا ... وسلامتنا ؟ مشروع يرتكز على دراسة وافية لقضايانا الكبرى وتخطيط علمي صحيح لاصلاح ما بنينا عليه من اعوجاج . يجب ان نستهدف انقلاباً عاماً شاملاً يصيب صغائر الامور وكبائرها ، انقلاباً مرسوماً لا يبقي على أمر من تقاليدنا وتربيتنا لا يتفق والمنهج الانشائي الذي نسير عليه . (١)

•

المهم في بادىء الامر ان نقرّ العلاقة بين تراثنا الاجتماعي وحالتنا الزراعية الريفية ... بل وجميع نواحي الحياة ، وان نشعر شعوراً صادقاً ان لا سبيل للنهضة مهما كان نوعها اذا لم تبن على اساس بشري صحيح . ثم بعد ذلك يجب ان

(١) يعتقد البعض ان فقر الفلاح هو سبب تأخره . فعندما تزيد مدخوله ونحسن اقتصادياته فان مستوى معيشته يتحسن وحياته الاجتماعية والثقافية تتبدل. واذا امعنا النظر قليلا نجد ان اصلاح الزراعة وزيادة المدخول لايترك اثراً يذكر في حياة الفلاحين . فان زيادة الانتاج التي تحصل في سني المطر الجيدة وزيادة الدخل الذي يناله الفلاح في سني الغلاء هي كافية لان ترفع عنه كابوس الفقر . فما هي نتيجة هذه «البحبوبة» من المال ؟ اننا نشاهد الفلاح في سني الرخاء يبذر ماله في لبس الحرير والاسراف الاجتماعي (ولائم وسهرات) وفي الطلاق والزواج الخ . وقد ذكر لي احد المطلعين ان الجرائم على انواعها تزداد بين الفلاحين في « سنين الخير » ! فالنظر الى المشكلة الريفية كمشكلة زراعية اقتصادية بحتة وعدم الاهتمام بالناحية الاجتماعية هو عين الخطأ . وعدم ادراك هذا الخطأ يؤخر نهضتنا الريفية اجيالا عديدة .

نخلق الوعي العام نحو هذه الناحية وان ننصب بكل قوانا الاصلاحية و بتخطيطنا الانشائي في اتجاه واحد وللهدف الاعظم وهو خلق امة جديدة تستحق ، وتقوى على الحياة في هذا القرن العشرين . و بينما نحن الزراعيين نقوم بعملنا الترقيعي الموقت فنعلم الفلاح كيف يحلب بقرة او يغرس شجرة او يكافح حشرة ، فليعمل من بيدهم زمام الامة ، في الامور الاجتماعية الاساسية وليقوّموا ما اعوج في مجتمع الفلاح وفي ثقافته فيضعوا لنا اساساً متيناً يأتي بعده عملنا الزراعي منتجاً فعالا . وما هذا تنصل من مسؤولية ولا اعتذار عن تقصير بل انما هو ادراك لحقيقة المشكلة . . . هكذا تؤكل الكتف ! !

. . .

الفلاح بنفسه هو هدفنا وهو وسيلتنا . فالاصلاح الزراعي يجب ان يستهدف اصلاح حالة الفلاح ومستوى معيشته و بيئته قبل ان يستهدف زيادة ثروة الامة . وفي آن واحد لا وسيلة للاصلاح الزراعي الا عن طريق الفلاح . فالعامل البشري في الزراعة هو العامل الاكبر في رقيها وتقدمها . ونجاح الزراعة يتوقف على عقلية الفلاح ومستواه الاجتماعي اكثر مما

يتوقف على خصب التربة وجودة الطبيعة . ان ارضنا الخصبة وانهرنا المتدفقة وما نشاهده في الوقت نفسه من فساد في زراعتنا ونقص في انتاجنا لهو اكبر شاهد على ما نقول . اذاً

افتحوا عين الفلاح قبل ان تفتحوا له طريقاً ،

اصقلوا عقله قبل ان تصقلوا محراثه ،

هذبوه قبل ان تشذبوا الشجرة ،

وانعشوه قبل ان تنعشوا الزراعة .

ان عقلية الفلاح هي اهم عقبة في سبيل النهضة الزراعية ولن تنهض الزراعية الى المستوى الذي ننشده ما دامت حالة الفلاح ونفسيته على ما هما عليه .

واني اختتم ، كما افتتحت ، هذه الرسالة بالآية الكريمة !

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072578006

الموزعون

دار الكشاف

للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت – لبنان

في مصر : فرع دار الكشاف – ٣٧ شارع عبد العزيز بالقاهرة

في العراق : فرع دار الكشاف – خان الشهربانلي ببغداد

الثمن { ٢٠٠ قرشا لبنانياً سورياً
٢٢٥ ملّا ، او مليماً ، او فلساً

مطابع دار الكشاف ، بيروت